مكسيم غوركي

المتشرِّدون

ترجمة
عبد المعين الملوحي

رواية





المتشردون

عنوان الكتـــاب: المتشردون
اسـم المؤلـــف: مكسيم غوركي
الموضـــــوع: قصص
تـرجمـــــة: عبد المعين الملوحي
عدد الصفحات: 152 ص
القيـــــاس: 14.5 ✧ 21.5 سم
الطبعـــة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN:



سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

مكسيم غوركي

المتشردون

تعريب

عبد المعين الملوحي

مقدّمة المترجم

قال اياس بن القائف:

تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

في هذه المجتمعات التي يسودها نظام التنازع الحيواني في سبيل البقاء، مهما كان نوع البقاء، لا نظام التضامن الإنساني في سبيل حسن البقاء، وفي هذه المجتمعات التي يعيش فيها الإنسان «شيئاً» لا قيمة له، لا «إنساناً» هو معيار القيم، في هذه المجتمعات التي ما تزال تسير يدفعها القدر الأعمى، ولا يهديها العقل البصير، في هذه المجتمعات يعيش الملايين من البؤساء، تقذف بهم الأرض في كل جانب فهم لا يطمئنون، وتلقى عليهم الحياة أثقالها فتطحنهم طحناً، في هذه المجتمعات يتحوّل هؤلاء الملايين إلى لصوص يسرقون ويظنّون أنهم بهذه السرقة قادرون على حلّ مشكلة فقرهم وهي جزءٌ من مشكلات المجتمع، وهم لا يعلمون أنّهم يزيدونها بها تعقّداً، وإلى متشردين يسعَون في طلب الرزق في كلّ مكان فلا يجدونه في مكان، يطلبونه حفاة عراة ويظلّ يفرّ منهم، فتهترئُ حياتهم في الشوارع والأزقّة فلذة بعذ فلذة حتى يسلمهم طول الطواف في صحارى العمر إلى طول الرقود في زوايا القبر، وإلى شحّاذين يملؤون آذان الناس في طلب الرحمة ولو كان في الناس رحمة لجادوا عليهم بها دون سؤال،

ويتسكّعون على الأبواب يطلبون من مال الله والمال في خزائن الأغنياء، فيضربهم الرجال وتنتهرهم المرأة ويشتمهم الطفل، ويستمرون في التسول يجمعون كِسَرَ الخبز اليابس، وفضلات الطعام الوخم، ويجعلونها غذاء لأطفالهم الذين يسيرون بهم إلى جانبهم أكواماً من الأقذار وتلالاً من الأسمال، أو يحملونهم على ظهورهم مرضى يفتك بهم السلُّ فيقيئون رئاتهم وهم يسعلون.

إلى هؤلاء اللصوص والمتشردين والشحاذين يتحوّل الملايين في هذا العالم الذي كان ينبغي ألّا يكون فيه لص ولا متشرد ولا شحّاذ، وفي هذا العالم عاش مكسيم غوركي ردحاً من عمره متشرداً في الطرق، ولقد كان من الممكن أن (يبقى) كذلك، ولكنّه أراد أن يشقّ لنفسه سبيلها إلى الحياة والحريّة والنور، وأراد الموت والاستبداد والظلام أن تشقَّ سبيلها إلى نفسه ونشبت معركةٌ كبرى بينهما واستمرّت هذه المعركة تسعاً وأربعين سنةً 1868 – 1917، ثمَّ انتهت بانتصار الكاتب انتصاراً أبدياً، وأذابه، وقد انتقد نفسه، وشقّ طريقه إلى المجد والخلود، وإذا به لا ينقذُ نفسه وحدها، ولكنّه ينقذُ معها مائتي مليون من المعذّبين، وإذا به وهو المتشرد يستطيع أن يشترك في بناء مجتمع ليس فيه ولا يمكن أن يكون فيه لص ولا متشرّد ولا شحّاذ.

ولقد أراد هذا الكاتب العبقريُّ أن يعرض علينا صفحةً من حياته وحياة زملائه القدامى، فكتب كتاب «المتشردين»، والحقّ أنّه استطاع أن يمثل لنا فيه فصلاً من تلك المأساة التي مثّلها الناس جميعاً على مسرح الأرض منذ فجر التاريخ، من تلك المأساة التي انتهت في ركن من العالم منذ

أربع وثلاثين سنة وما تزال آخذة في النهاية في أركان أخرى متلاحقة في غير فتور متزايدة في غير توقف.

وهو يعرض لنا في كتابه ثلاثة نماذج من المتشردين، في ثلاث قصص:

أمّا النموذج الأوّل فيمثله تشيلكاش، هذا الرجل القوي الذي كان جندياً ثمّ أصبح متشرداً، وكان ذا أهل وزوج فترك الأهل والزوج، إنّه لص خطير، ولكنّه مع ذلك كريم، إنّه شقي بائس ولكنّه مع ذلك يريد ألّا يبقى غيره شقياً ولا بائساً، فهو يجود بما يسرق على فلاح ليعيش هذا الفلاح سعيداً.

وأمّا النموذج الثاني فيمثله غوركي نفسه، هذا الرجل الذي ذاق التشرد ولكنّ التشرد لم يستطع أن يحلّ ما في شخصيّته من تماسك ورجولة، لقد عرف -كما قال في ذكرياته الأدبيّة- أن ليس في الوجود شيء يخلق الإنسان مثل مقاومة هذا الوجود، فقاومه واستطاع أن ينتصر عليه وأن يفرض عليه نفسه.

كان كلّ شيء يدفعه إلى أن يكون مثل من حوله: لصّاً أو مجرماً أو سكّيراً ولكنّه أبى أن يكون مثل من حوله فاستطاع أن يكون أعظم كاتب لأعظم ثورة.

وهو في قصّته «رفيقي» يحمي أميراً من أمراء الكرج أربعة أشهر، يطعمه ويرعاه ويحرسه، ويلقى في سبيله الموت مرات ويرافقه من أوديسا إلى تفليس ويَعِدُه الأمير إذا وصل إلى مقرّ إمارته بالحياة الرغيدة السعيدة، وسترى ما سيكون من أمره معه، ولكن مكسيم غوركي تعلّم منه درساً في

الحياة، «لقد تعلّمتُ منه أموراً كثيرةً لا أستطيع أن اتعلّمها في الكتب الكبيرة، ذلك أنّ فلسفة الحياة كانت وما تزال أكثرَ عمقاً وأوفر سِعَةً من فلسفة الناس».

والنموذج الثالث هو أكثر نماذج المتشردين بؤساً وشقاءً إنّه النموذج الذي لا يستطيع أن يستمرَّ في السرقة مثل تشيلكاش لأنّه عجوز متهدّم أو طفل صغير ولا يستطيع أن يقضي على تشرّده وأن يشقَّ طريقه إلى العمل مثل مكسيم، لأنّه ضعيف النفس سقيم، فهو يموت في الآفاق، يجرفه السيل فيقضي عليه فلا يجد جبانة يأوي إليها، لأنّه سارق لا يجوز أن يرقد في مقابس المؤمنين، ومع ذلك فقد جاد عليه هؤلاء المؤمنون أخيراً بصليب من حجر.

قوّة جسديّة لم تُرزَق قوّةً نفسية، فهي تستمرّ في تشرّدها وبطشها.

وقوّة جسديّة ذات نفس جبّارة تقف عن التشرد وتمشي في طريق المجد.

وضعفٌ جسديٌّ يُضَافُ إلى ضَعْفٍ نفسي يغرق في تيار الحياة ويأخذه السيل فيموت.

تلك هي نماذج ثلاثة من المتشردين تعرضها علينا روايات مكسيم غوركي الثلاث:

1 – تشيلكاش

2 – رفيقي

3 – الجدّ أرخيب والحفيد لانكا

وها أنذا أنقلها إلى اللغة العربية أثراً من آثار الأدب الحي، بعد أن

نقلت للكاتب «ذكريات حياتي الأدبية» وقد نشرته في القاهرة، وأعد أن أنقل كلّ آثار الكاتب، وبعضها لا ينقصه اليوم إلّا أن يطبع.

وفي اعتقادي أنّ الشرط الأوّل لرفع مستوى الأدب العربي الآن هو أن ننقل روائع الأدب العالمي نقلاً منظماً، ولاسيّما الأدب الذي يُشْعِرُكَ أنّ عليك أن تكون إنساناً وأن تكون حراً.

وفي اليوم الذي لا أجد فيه لصاً ولا متشرّداً ولا شحّاذاً، في اليوم الذي لا يمكن أن يكون فيه لص ولا متشرّد ولا شحاذ، في اليوم الذي تصبح فيه اللصوصيّة حلماً مزعجاً، ويصبح التشرد ذكرى للإنسانية المريرة، والشحاذة تاريخاً ماضياً لعيناً، في هذا اليوم يصبح الإنسان إنساناً لا حيواناً ولا عنصراً.

ولعلي سأرى هذا اليوم عمّا قريب

حمص 13\11\1951

عبد المعين الملوحي

تشيلكاش

- 1 -

تصاعد الغبار من المرفأ فعكّر صفو السماء، واتّقدت الشمس فوق البحر اللازوردي مُتّشِحَةً بحجاب أبيض رقيق وتكسّرت أشعّتها على الأمواج، وبدت على صفحة الموج دروع مسرودة نسجتها ضربات المجاذيف، ومراسي المراكب، ومراوح السفن، وقوادم الفلك وهي تروح وتغدو وتشقّ الأخاديد في جبين الحوض الصغير.

وكبّلت صخور الشاطئ الأمواج، وسحقتها الأثقال التي تحملها، ودنّست الأقذار ذوائبها الغاضبة، فترنحت ثمّ تكسّرت على المراكب وعلى الأرصفة، وكأنّها وهي في حربها الضروس، يوشوش بعضها في آذان بعض.

وملأ الجواء انسجام رائع، إنّه هو العمل الشامل. هو الانسجام الذي يبدعه صرير السلاسل، وتدحرج القاطرات تحمل البضائع، وسقوط أعمدة الحديد على الأرصفة سقوط المنتحب الشاكي، وصفير المراكب البخارية صفيرها الحاد حيناً، الأجش حيناً، وضوضاء الحمالين، وأصوات البحّارة وصرخات رجال المكوس.

وتعالت هذه الضوضاء، وتمدّدت، ثمّ وقفت في السماء لا تصعد ولا تتحرك، لكأنّها خشيت أن يبتلعها علوها في جواء السماء.

والأرض تنفث أشكالاً أخرىٰ من الضجة لا تكاد تتغير فهنا أشكال من الرعود تهزّ الأرض هزاً عنيفاً وهنالك أنواع من الصفير تترنّح وترنّ في الهواء الذي يحترق بما أثقله من الغبار.

وتعالىٰ من كلّ ما هنالك من حجارة ومعادن، وأخشاب ومراكب، وإنسان وحيوان، ابتهال حار وتضرّع ملتهب، إلىٰ الوهية المال.

أمّا صوت الإنسان في وسط هذه الضجة الكبرىٰ، فكان ضعيفاً لا تكاد تميّزه الأذن، وكان مضحكاً كهؤلاء الناس الذين صنعوا هذه الضجة الكبرىٰ. كانوا يلبسون أثواباً خلقة وسخة بالية، ويحنون ظهورهم تحت هذه الأثقال الفادحة، ويدبّون دبيباً في هذا الغبار المتراكم المتراكب، وكأنّهم أقزام متضائلة صغيرة إلىٰ جانب تلك الآلات الحديديّة الجبارة وإلىٰ جانب هذه القطارات الهائلة وهذه الأدوات التي كانوا، مع ذلك هم الذين اخترعوها وصنعوها.

إنّهم وهم عبيد مخلوقاتهم فقدوا بها كلّ ما لهم من شخصيّة.

وزأرت السفن الثقيلة الراسية في المرفأ وصفّرت، ولكأنّ في كلّ زفرة من زفراتها العميقة سخرية مريرة من سخرياتها بهؤلاء الناس الذين يجرون أرجلهم جراً علىٰ الجسر، ويكومون في زواياها ما أنتجته جهودهم، جهود الخدم والعبيد، من رزق وخير.

ومشىٰ الحمّالون في صف طويل، يبعثون علىٰ الضحك ويدفعون إلىٰ البكاء في آن واحد، وحملوا فوق ظهورهم أكياس الحنطة الثقيلة، وذهبوا بها

يودعونها أمعاء الحديد في المراكب.. ولولا هذ العمل لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه الكسر من الخبز الذي ليس لهم عنه غنى، يطمئنون به معداتهم التي يصرخ فيها الجوع ويتضوّر فيها السغب.

يا لها من سخرية فاجعة قاسية هذه السخرية التي تسخر بها الأشياء من الناس: هنا ناس أنصاف عراة يتصبّبون عرقاً ويتهالكون تعباً وحراً تصعقهم الضوضاء وَتُصِمُّ آذانهم الضجة.. وهناك الآلات لامعة ساطعة، قويّة لا تشعر بتعب ولا تحسّ بألم. إنّ الذي يهب الحياة لهذه الآلات ليس هو هذا البخار، إن ما في عضلات الإنسان من قوّةٍ وإن ما في عظامه من مخ، إنّهما هما اللذان يقدمان لها القوت، ويهبان لها الغذاء.

الضوضاء صاخبة، والغبار كثيف يغيظ الأنوف والجفون ويرهق الناس إرهاقاً، ولقد يُخيَّلُ إليك أنَّ هذا الجو الحار الساخن المختلج يتمخَّض عن حادثة رهيبة مفاجئة، عن انفجار عظيم سيجعل هذا الهواء أكثر صلاحاً للتنفس وأكثر نقاء وصفاء، عن انفجار سيحرر الأرض المثقلة بكلّ هذه الضجة المزعجة والضوضاء المثيرة، وسيبدّد هذا السم القتال وعندئذ تظهر الأرض والبحر والسماء هادئة ساكنة.. يا للأسف. إنّ هذا أمل كلّه عبث. أمل تخبّطت فيه الإنسانيّة منذ الأزل في حلمها الأزلي العقيم بالخلاص.

وَقُرِعَ الجرس اثنتي عشرة قرعة رنانة رتيبة، وبينما القرعة الأخيرة تلفظ أنفاسها خفت نصف انسجام العمل، ومضت دقيقة أخرى فلم تبق منه غير تمتمة غامضة، وأصبح صوت الناس أكثر وضوحاً وصوت البحر أشدّ ظهوراً.

لقد دقت ساعة الغداء

- 2 -

أنهى الحمّالون أعمالهم، ومضَوا زرافات يشترون ما يسدّ رمقهم من بائعي الرصيف، ومضَوا يبحثون عن زوايا ذات ظلّ يجلسون على أرضها فيأكلون ويشربون.

ويبرز فجأةً بينهم ذلك الذئب العجوز الوحشي الذي يسميه الناس «غريشكا تشيلكاش» طالما خاصم تشيلكاش الشرطة، وخاصمهم في مسائل تافهة واعتبره كلُّ من في المرفأ سكّيراً عربيداً مدمناً في ثياب لص جسور ماهر.

ومشى تشيلكاش عاري الرأس، حافي القدمين، يرتدي سروالاً بالياً من المخمل، وقميصاً من قماش ممزق إرباً إرباً، ترى من خلال ثقوبه جلد عنقه الأسمر يغطي عظاماً ما تنفك تختلج وتتحرك، ويشهد شعره الأسود الأشعث الذي وخطته شعرات بيض قلائل، ووجهه العابس الذي تشبه تقاطيعه تقاطيع طير مفترس. إنه قد استيقظ وشيكاً من نومه، ولا يزال على وجهه عودان من القش يتعرَّض أحدهما شاربيه اعتراضاً ويستلقي الآخر على لحيته استلقاءً، وقد تدلَّت زهرة من أزهار الزيزفون ما تزال غضة على أذنه.

مشى تشيلكاش طويلاً جدّ طويل، نحيفاً جدّ نحيف، منحنياً بعض

انحناء يحكّ أنفه، ويبحث عن رجل بين الحمّالين، ويهتزّ شارباه الكثيفان الأسودان، كأنّهما شاربا قط، ويشبك وراء ظهره كفين أصابعهما ثخينة ذات عقد خشنة.

كان هناك مئات من الحفاة العراة أمثاله ومع ذلك فأنت لا تستطيع إلّا أن تميزه من بينهم، فنحوله الرهباني، ومرونته في مشيته، الساكنة الهادئة في ظاهرها، القلقة العصبيّة في حقيقتها، المشابهة لطيران عقاب فوق الصحراء، كلّ ذلك كان يدعو إلى تشبيهه بهذا الطير تشبيهاً مزعجاً.

وتقدّم إليه وهو يمرّ بجماعة من المشتردين يستلقون في ظلّ عجلات الفحم شاب ذو وجه ساذج تخطّط وجهه شطوب حمر، وندوب تدلّ على شجار قريب، ثمّ مشى إلى جانب تشيلكاش وتمتم في صوت خافت:

- لا يزال المراقبون يبحثون عبثاً عن صندوقين من البضاعة. أسمعت يا غريشكا؟ وحدّق تشيلكاش في وجه الفتى ثمّ قال له:

- وماذا يعنيني؟

- كيف؟ ماذا يعنيك!! إنّهم يبحثون. وأنا أخبرك.

- وهل دعوني لأساعدهم في بحثهم.

وعلت ثغر تشيلكاش وهو يقول ذلك، ابتسامة ساخرة ونظر إلى مستودعات البحريّة وأضاف: - لعنك الله. ثمّ نادى صاحبه وقد رآه يبتعد.

- قف قليلاً! ما هذا؟ من الذي قام بإصلاح وجهك هذا الإصلاح؟ خرّبت سحنتك تخريباً. أرأيت ميشكا هنا؟ .

وصرخ صاحبه وهو يعود إلى مجلسه بين الحمّالين: - كلا، لم أره من زمان بعيد.

ومضى تشيلكاش في طريقه.. يقابله الناس في كلّ مكان بالترحاب، ولكنّه كان مشغولاً عن هذا كلّه اليوم، مضيّعاً مرحه الساخر الطبيعي، خائر النفس، يردّ على الناس وأسئلتهم بكلمة سريعة مقتضبة.

وبرز من بين أكداس البضائع حارس يجسّد النظام العسكري الحازم في ثوبه العسكري الأخضر المغطى بالغبار، واعترض طريق تشيلكاش متوعداً مهدداً، وأمسك بيسراه قبضة سيفه، وحاول أن يقبض بيمناه على عنق المتشرد:

– قف مكانك. وتراجع تشيلكاش خطوة واحدة إلى وراء ونظر إلى الحارس مبتسماً، وحاول الحارس أن يتّخذ مظهر الرجل المخيف، وهو ذو الوجه الحي الطيب الضاحك، ونفخ خديه، وفرك حاجبيه وقلب عينيه الناقمتين فبدا أشدّ إضحاكاً في جدّه. وصرخ في لهجة قاسية:

– أنذرتك، لا تحاول دخول هذا المكان وإلّا كسرت لك أضلاعك.

وأجابه تشيلكاش رصيناً غير مكترث وقد مدّ إليه يده:

– صباح الخير يا سيميتتش. لم أرك منذ زمن طويل.

وقال الحارس:

– أمّا أنا ففي غنى عن رؤيتك. ومع ذلك فقد مدّ يده وصافح اليد الممتدة إليه فعصر تشيلكاش أصابعها، وقال له وهو يحركها: – أخبرني: هل رأيت ميشكا؟

– ميشكا؟ ومن هو ميشكا هذا؟ أنا لا أعرفه، سر في طريقك يا أخي لو رآك المفتش لـ...

وقال تشيلكاش غير عابئ: – ميشكا، الأشقر ألا تعرفه زميلي في «الكومستروما».

– زميلك في النهب والسلب. أليس كذلك؟ حسناً إنّه الآن في المستشفى لقد ترك قضيباً حديدياً يسقط على ساقه.. والآن سر في طريقك يا أخي، أرجوك وإلا فأنا مضطر إلى طردك وضربك.

اسمع، قلتَ منذ لحظة أنّك لا تعرف ميشكا، ثمّ ها أنت ذا تعرفه. ماذا يغضبك يا سيميتتش؟

– كفى يا غريشكا، كفى ثرثرةً، اخرج من هنا!

وجعل يغضب، وحاول أن ينقذ أصابعه من بين يد تشيلكاش الصلدة، أمّا هذا فقد كان يضحك منه وينظر إليه من خلال حاجبيه الكثيفتين ويستمرّ في عصر يده ويتابع حديثه: ولِمَ العجلة؟ ثق أنّني سأسير حين أنتهي من حديثي. أخبرني كيف صحة الأولاد وكيف حال امرأتك؟ ثمّ كشّر عن أسنانه فتحطّمت فوق شفتيه بسمة ساخرة وغمز بعينه وقال: فكّرت كثيراً في زيارتك. فلم يسمح لي وقتي. ذلك أنّي دائماً سكران.

حسناً... حسناً... دعني... كفى مزاحاً يا شيطان... دعني يا أخي... بل أنا سأذهب وأدعك... ولكن أخبرني صادقاً: هل عوّلت على نهب المنازل وسرقة الأسواق؟

– ولِمَ أسرق المنازل؟ وهنا ما يكفينا كلينا. وبالمناسبة... أظنّ أنّك قد سرقت صندوقين جديدين! فحذار حذار يا صديقي أن تقع فتعلق.

وتمادى تشيلكاش في جرأته ووقاحته فزاد غيظ الحارس واختلجت أعضاؤه، وأصبح لا يستطيع نطق كلمة واحدة، فقنع بالبصاق على الأرض، وعند ذلك أفلت تشيلكاش يده، ومضى بخطاه المرنة الهادئة إلى الباب، وسار وراءه الحارس يشتمه ويتوعده.

وعاد إلى المتشرّد مرحه المفقود، وعاد يغني ويمزح ويُصَفّر في غير اكتراث، ويداه في جيبي سرواله، كأنّه متفرّج يتمشّى هادئاً مطمئناً، ومشى يبادل الناس ويبادلونه من كلّ جانب كلمات ساخرات ضاحكات.

وصرخ أحد الحمّالين الذين التهموا طعامهم ثمّ تمدّدوا على الأرض.

– ما أحسن حظ غريشكا... إنّ الشرطة كلّها تسهر عليه وتهتم به.

وأجاب تشيلكاش:

– ذلك لأنّي حافي القدمين، ويخاف سيميتش أن يؤذيهما الحفاء، وبلغ الباب ففتّشه حارسان ثمّ دفعاه إلى خارج المرفأ في غير عنف.

وصرخ سيميتش، وهو واقف في ساحة المرفأ: أوقفاه.. أوقفاه..

ومضى تشيلكاش فجلس فوق عمود مغروس في الأرض تُرْبَطُ به المراكب ومن ورائه خمّارة، وخرج من المرفأ صف طويل من العجلات تحمل البضائع، وتصرّ صريراً يُصِمُّ الآذان، ودخل إلى المرفأ، من الناحية الأخرى، صف طويل من العجلات فارغة سريعة يقفز أصحابها فوقها قفزاً.

ودوى الرعد من خلال غيمةٍ كثيفةٍ من الغبار، حتى خُيِّلَ إليه أن الأرض تضطرب وتهتز، وشعر تشيلكاش وقد أثار شجونه حواره مع سيميتش أنّه سعيد، سعيد لأنّه يحيا في هذا الجو الصاخب الذي أحبّه وألفه، وفكّر طويلاً في أحداث زمن قريب، في ربح طيب لم يتطلّب منه حيلة ولا قوّة، ولو تطلبهما لم يعوزاه، فهو مفعم بالقوة والحيلة، بهذين العنصرين اللذين هما أساس النجاح، وغمز بعينيه وهو يحلم حلماً سابقاً بالحفلة التي سيقيمها غداً بعد أن تنتهي مهمّته، وتنتفخ جيوبه بأكداس مكدّسة من الليرات.

وفكّر في رفيقه ميشكا لقد كان محتاجاً إلى معونته الغالية في حملة هذه

الليلة، فكسر له ذلك الحادث المشؤوم ساقه، وخنق تشيلكاش لعنة كانت على رأس لسانه حين ظنّ أنّ غياب ميشكا قد يُعَوِّق نجاح مشروعه. ثمّ نظر غريشكا إلى السماء باحثاً متصفّحاً وتمتم: وكيف يكون الليل؟

وجلس على بعد خطوات من تشيلكاش فلاح يلبس قميصاً وسروالاً أزرقين، وفي رجليه قبقاب، وعلى رأسه قبعة صفراء، وحواليه كيس صغير، ومنجل يمدّ رأسه من هذا الكيس وتحيط به سنابل الذرة، وتلتفّ حوله خيطان تغطي جميع جوانبه. كان يسند ظهره إلى عمود فوق الرصيف ويمدّ رجليه إلى قارعة الطريق، وكان قويّ البنية، عريض ما بين كتفيه، أشقر الشعر، لوّحت الريح وجهه، وأحرقت الشمس جلده، وكان بين الفينة والفينة يختلس النظر إلى تشيلكاش يتفحصه بعينيه الكبيرتين المليئتين بثقةٍ ساذجة.

ورآه تشيلكاش فجعل يمدّ إليه نظره، ثمّ مدّ له لسانه فكشفت أسنانه عن ابتسامة منكرة وصُعِقَ الفلاح الشاب فأغمض عينيه ثمّ انفجر في قهقهةٍ صاخبةٍ وهو يصرخ: - أوه ما أخفّه.

وزحف الفلاح زحفاً إلى تشيلكاش، ولم يكلف نفسه عناء الوقوف والسير، وجرّ وراءه كيسه، وقرع منجله أحجار الرصيف وأمسك بسروال المتشرّد يهزّه ثمّ قال له:

- إيه يا أخي، أظنّ أنّك ستحيي حفلة ساهرة عامرة.

وقال له تيشلكاش في لطف وإيناس: - هذا صحيح أيّها الشاب الظريف. لقد أرضاه عفوا هذا الشاب القوي الذي تنبّع عيناه الساذجتان عن نفس طفل بريءٍ ثمّ سأله: - أأنت قادم من حصاد الذرة؟

- نعم. لقصد حصدت فدّاناً كاملاً بكوبك واحد، الأحوال واقفة

والناس قد زادوا، وجاءنا جماعات متشرّدة تموت جوعاً فهبطت أجور الحصادين، كنا نحصد الفدّان بستين كوبكاً في الكوبان، وسمعت أنَّ إجرة الحصادين فيما مضى من الزمان كانت أربعة روبلات وأحياناً بلغت خمسة.

وقال تشيلكاش:

– فيما مضى من الزمان، فيما مضى من الزمان، كان الناس يدفعون ثلاثة روبلات عدّاً ونقداً لينالوا شرف النظر إلى رجل روسي أصيل. ومنذ عشر سنوات تقريباً اتّخذت من هذا العمل تجارةً رابحةً: كنت أدخل القرية وأنا أنادي بملء صوتي:

يا ناس، أنا روسي.. أنا روسي، ويهرع الناس إليَّ من كلّ جانب هذا يفحصني وذاك يجسّني، وهذا يتأمّلني معجباً مزهواً.. وكلّهم يدسُّون في جيبي ثلاثة روبلات وكلّهم يغمرونني بالطعام غمراً ويصبّون عليَّ الشراب صباً، يرجونني ويلحفون في رجائهم لأشرّفهم بالبقاء في بلدهم ما طاب لي البقاء..

وأصغى الفتى لتشيلكاش، وقد فغر فاه، وارتسمت على وجهه العريض ملامح الدهشة والإعجاب.

ثمّ عرف أنّ هذا الرجل الذي تبرز ركبتاه من ثقوب سراويله يقصُّ عليه خرافات مضحكة، فأغلق فاه ثمّ انفجر في قهقهة عريضة واسعة، وأمّا تشيلكاش فقد كان يصطنع الجدَّ الرصين المتزّمت ويواري سخريته:

وقال الفتى الفلاح:

– ما أغرب أمرك: إنَّ من يسمعك يقسم أنّك صادق، وكذلك فعلت أنا ولكنّي أؤكد لك غير مازح ولا هازل أنّ الناس فيما مضى من الزمان كانوا هناك..

- وأنا أؤكد لك غير مازح ولا هازل أنّ النّاس فيما مضىٰ من الزمان كانوا هناك..

وقال الفلاح يائساً: لعنك الله... ولكن قل لي: هل أنت حذّاء؟ هل أنت خيّاط؟ وسأله تشيلكاش: أنا؟ ثمّ فكّر قليلاً وقال: أنا صياد.

- أأنت صياد؟ وماذا تصيد؟ أتصيد السمك؟

- ولماذا أصيد السمك؟ إنّ الناس في كلّ هذه البلاد لا يبحثون إلّا عن صيد السمك. أمّا أنا فأقضي أكثر أوقاتي في صنع شباك خاصة أجرُّ بها الغرقىٰ والألواح الضائعة في البحر وأنقذ المراكب الغرقىٰ، وعلىٰ العموم أجرّ كلّ شيءٍ ممكن..

- اخترع ما طاب لك أن تخترع واخدع ما طاب لك أن تخدع ولكنّي، علىٰ يقين أنّك من هؤلاء الصيادين الذين يتغنّون بما يفعلون:

نحن لا نلقي شباكاً	فوق أمواج البحار
نحن نلقيها علىٰ مـ	ـستودع وسط القفار

ونظر تشيلكاش ساخراً إلىٰ هذه الرعونة في هذا الولد الطيّب ثمّ سأله:

- وهل عرفت هؤلاء الناس؟

- لم أرهم بعيني، ولكنّي سمعت عنهم أحاديث بأذني.

- وهل يعجبونك؟

- ولماذا لا يعجبونني. إنّهم يعيشون أحراراً لا يخافون أحداً.

- ماذا تقول؟ الحريّة.. الحريّة.. وهل هي عزيزة عليك؟

- وكيف لا أحبّ الحريّة؟.. أنت سيّد أمرك.. تذهب حيث شاء لك الهوىٰ، تفعل ما بدا لك أن تفعل! هذا هو المنام اللذيذ، والحلم العظيم،

ولكن على شرط واحد هو أن تصون أخلاقـك وتحفـظ نفسـك، فتستطيع عندئذ أن تدرك اللذة وتغرق في المتعة، وأنت ترخي الله ولا تسخطه.

وبصق تشيلكاش علىٰ الأرض في إزدراء واحتقـار وأدار ظهـره إلى الفلاح وكفّ عن حواره.

أما الفتى فقد استمر في حديثه مأخوذاً بنوبةٍ من الحماسة:

- لقد ترك لي والدي بعد موته، مالاً قليلاً وأما عجوزاً، وقطعـة أرض شحيحة، وماذا أصنع؟ يجب أن أعيش، وكيـف أعـيش؟ هـذا أمـر عجيـب، عجيب حقاً. لو صاهرت عائلة غنيّة لأحسنت صنعا، ولكـنّ الأب لا يـرضى بإعطاء بائنة لابنته، إنه أعمى لا يرىٰ شيئاً يقنعه بتقـسيم ثروتـه. وعـليّ إذن أن أرهق نفسي في العمل سنين طويلةً لأزيد في ثروته... أفهمت؟ لو كنت أملـك مائة وخمسين روبلاً لكنت أكثر قوّةً وأشدُّ بأساً، لو كنـت أملكهـا لـذهبت إلى هذا العجوز وقلت له «أين بائنة مارفا؟ هل توافق؟» فيقول لي:

- «كلا».

- «حسناً. الحمد لله أن ليس في القرية كلها فتاة أخرىٰ صالحة للـزواج» وهكذا أبقىٰ حراً سيداً - آه - ثم تنهد الفتىٰ الفلاح - أمـا الآن فلـيس أمـامي إلا أن أصاهر عائلة. قلت في نفسي، «سأذهب إلى الكوبان وأجمع مائتي رويـل علىٰ الأقل، وعند ذلك أنقذ نفسي وأصبح شيئاً ما» ولكن كل هذا حلم باطل. وعليّ الآن أن أوطن نفسـي عـلىٰ أن اتـزوج زواجـاً فقـيراً، وأن أكـون سـائمةً كالعبيد لأني لا أملك ما يكفيني لأعيش بمواردي الخاصة وأأسفاه.

يظهر أن مشروع الزواج بفتاة غنيّة تبقىٰ في بيت أهلها مـشروع مـلأ الفتىٰ الفلاح رعباً وأسىٰ، وأسدل عـلىٰ وجهـه نقابـاً مـن الحـزن والقلـق،

فجعل يضطرب في مكانه على الأرض ويختلج فاسترعى انتباه تشيلكاش مرّة أخرى، وهو الذي نسي الفلاح وغرق في بحر أفكاره الشخصيّة، ولكنّه لم يشعر بالرغبة في العودة إلى حديث الفلاح ومع ذلك فقد سأله:

– إذن فإلى أين أنت ذاهب؟

– إلى أين أنا ذاهب؟ إلى بيتي طبعاً؟

– ولماذا طبعاً؟ ألست تحبّ أن تسافر إلى تركيا مثلاً.

وصرخ الفلاح في صوت حاول أن يمطّه:

– إلى تركيا؟! ما هذه الحكاية؟ أيذهب المسيحيون إلى تركيا؟

وتمتم تشيلكاش يالك من أبله وأدار له ظهره، وصمّم ألا يعود إلى حوار هذا الفلاح اليابس الذي أثار في نفسه شعوراً لم يستطيع تحديد نوعه. وأحس أن اضطراباً غريباً بطيئاً غير واضح يخنقه خنقاً وصل إلى أدقّ ما في جسمه من أعصاب، إنه شيءٌ يشبه الاشمئزاز وليس به، جعله غير قادر على الإدراك وحال بينه وبين التفكير في مشروعات الليل وخططه.

وأثارت الإهانة الفلاح فدمدم بين أسنانه كلمات بذيئة ونظر إلى تشيلكاش نظرة شزراء، ونفخ خديه وأعرض عنه بوجهه، وغمز بعينيه غمزاتٍ مضحكاتٍ إنه لم يتوقع أن ينتهي حواره مع هذا الرجل ذي الشاربين الكبيرين بمثل هذه القطيعة وبمثل هذه الإهانة. ولم ينتبه له تشيلكاش، كان مشغولاً عنه يصفر ويضرب الأرض بقدمه الحافية الغبراء.

ورأى الفلاح أنه قد آن أوان الثأر من هذا المتشرد فالتفت إليه يناديه:

– ايه أيها الصياد. هل أنت سكران؟

وقطع الصياد نداء الفلاح بسؤال فجائي:

– اصغ إليّ أيها المهرج الصغير! أتشتغل عندي الليلة؟

أجب حالاً. وسأل الفلاح قلقاً – وماذا اشتغل؟

– سأقول ذلك لك: سنذهب إلى الصيد فتقود أنت المركب

– إذا كان ذلك كذلك فلست أجد ما يمنعني. ولست أريد إلا العمل؟ ولكن خبّرني.. أيمكن أن ينتهي عملي بغير سوء فملامحك غامضة لا توحي إلى نفسي الإطمئنان.

أحس تشيلكاش بطعنةٍ في صدره ولكنه كتم غيظه وقال:

– لا شأن لك فيها لا تفهم. فاسكت وإلا ضربتك على أمّ رأسك ضربة تنير لك أفكارك في مثل سرعة البرق.

وانتصب تشيلكاش واقفاً على قدميه. ومسح شاربه بيده اليسرى، وهز قبضته القاسية كالحديد، وبدت شرايينه منتفخة معقدة، واشتعلت عيناه فخاف القروي وألقى على ما حوله نظرة سريعة قلقة، ووقف هو أيضاً. وراز الرجلان بعضهما صامتين. وسأل تشيلكاش في قسوة: وأخيراً؟

وغلّت في نفسه مراجل الغضب، أمثل هذا الحمل الصغير يهينه؟ نعم لقد احتقره أوّل ما تحدث إليه، أما الآن فهو يكرهه: يكره فيه صفاء عينيه الزرقاوين زرقة السماء، يكره فيه سمرة وجهه القروي، يكره فيه قوّة ساعديه القصيرتين ويكره فيه أن له قرية، وأن له في هذه القرية منزلاً ويكرهه لأن له في زاوية من زوايا الأرض عائلة تريد أن يكون لها صهراً، ويكرهه أخيراً بل يكرهه على الخصوص، لأنه وهو المخلوق الحقير، لأنه وهو القزم إذا قيس به، يدّعي أنه يحب الحريّة.. نعم الحريّة.. الحريّة التي لا يستطيع هو نفسه أن يدرك قيمتها.. الحريّة التي لا تنفعه في شيء. وهكذا

خلق الإنسان أنه لا يستطيع أن يقبل أن يصبح الفرد الذي يعتبره دونه إنساناً مساوياً له، إنساناً يشاطره أهواءه ويشاركه في احقاده.

- ولكننا اتفقنا.. أنا أبحث عن عمل، ولا يهمني أن أعمل لك أو لغيرك، وإذا كنت قد سبق أن قلت ماساءك فما ذلك يا أخي إلا لأني لم أرَ فيك ملامح الرجل الذي يعمل، فثيابك ممزقة، ولكن هذا غير ذي أهمّية فقد تتمزق ثياب الناس. قد تظن أني لم أرَ قبلك سكران، والله يعلم أني قد عرفت كثيراً من السكارى أكثر منك عربدةً وأقسى وجهاً.

وترفق تشيلكاش وسكت عنه غضبه وقال له: - أولى لك.. إذن فقد اتفقنا..

- طبعاً وما أجرتي؟

- هذا أمر يتعلق بنوع عملك وبمقدار وارداتنا، ويمكن أن أعطيك خمسة روبلات، أفهمت.

وبدا الفلاح منذ اللحظة التي ذُكرتْ فيها الدراهم متماسكاً حازماً يلحّ على المسألة إيضاحاً وجلاءً؟ وعاد إليه قلقه القديم، ورأى أن على معلمه الجديد تحديد أجرته تحديداً نهائياً وقاله له وهو شاكٍ مرتاب:

- لست راضياً على هذا الإتفاق إلا إذا قبضت الروبلات الخمسة حالاً.

ورأى تشيلكاش أن قد حان موعد تدشين عهده الجديد بالسيادة والسيطرة فقال له:

- كفاك بحثاً وتنقيباً.. سر بنا إلى الحانة..

وسارا في الشارع جنباً إلى جنب، أما تشيلكاش فكان يتصنّع مظاهر

السيّد المعتبر، ويفرك شاربيه، وأما الفلاح فكان يواري تحت ستار من الخضوع الظاهري كل ما يجول في خاطره من ريب وحذر.

وسأله تشيلكاش: ما اسمك؟ - جافريلو.

ودخلا حانة سمم الدخان هواءها، ومشى تشيلكاش إلى منضدة وطلب في بساطة زجاجة من الخمر وحساء ملفوف ولحماً وشاياً كأنه زبون أمين ثم قال في اختصار: «قيد».

وأحنى النادل رأسه في صمت ومضى، فشعر جافريلو حين رأى هذه الثقة التي يوحيها معلمه إلى الناس جميعاً على رغم من مظاهره، وهي مظاهر مجرم محترف، باحترام عميق لهذا الرجل الذي يعرفه الناس جميعاً في كل مكان، ويعرفونه مثل هذه المعرفة الطيبة.

وقال تشيلكاش:

- سأخرج قليلاً في عمل هيّن، وسأعود فنتحدث، انتظرني دقيقة:

ثم خرج فأدار جافريلو بصره وفحص المكان الذي هو فيه: حانة في قبو تحت الأرض تسودها ظلمة رطبة، ويفسد هواءها دخان اللفائف، وتفعمها رائحة القطران، ورائحة أخرى غريبة لعلها العفن.

وجلس أمام منضدة جافريلو، رجل سكران أشقر اللحية يلبس لباس بحار تلطّخه بقع من الشحم والدهن، ويدمدم في صوت منكر فيه رنة بكاء وتصفير أغنية تهزّه هزّاً دائماً على رغم ما في كلماتها من تشويه: هو ولا شك غريب غير روسي.

وتراءت في جانب من الحانة فتاتان شقراوان من مولدافيا، تلبسان أسمالا بالية فغنتا في صوت حادٍّ رفيع.

وبدت هنالك في أقصى الحانة وجوه غريبة متوارية في الظلام وشعور مشعّثة، وسكارى يعربدون ويترنحون.

وشرع جافريلو، وقد أوحشته وحدته، يتمنى لو عاد إليه سيده. كان كل ما في الحانة من أصوات وضوضاء يتجمّع في نغم واحد، كأنما هو زئير حيوان عظيم له مائة فم وفم، يبحث عبثاً عن مهرب ينجو من خلاله من سجنه الحجري، وحاول جافريلو أن يلاحظ ما حوله فأخفق، فأجهد نفسه ليلاحظ فأخفق، وكأنَّ شيئاً مثل الإغماء يغشى عينيه ويثقل فكره، ولكنه في نفس الوقت يُهَيّجهُ ويثيره.

وعاد تشيلكاش.. فشرعا يشربان ويأكلان ويتحدّثان، وسكر جافريلو بعد الكأس الثالثة، وأصبح مَراحاً يبحث عن كلمة حلوة يرضي بها هذا السيد الشهم الذي أقام على شرفه هذه الوليمة حتى قبل استخدامه، ولكن السكر كان قد أثقل لسانه وأبى أن ينطق بالكلمات الكثيرة التي كانت تفد زرافات زرافات فتقف عند حنجرته لا تجاوزها، أما تشيلكاش فكان يرمقه ويفحصه، وعلى ثغره ابتسامة ساخرة.

– أراك أصبحت رجلاً ناضجاً، أخمسُ أقداح صغيرة نحيلة بائسة جعلتك غير قادر على العمل؟!

وتلجلج جافريلو وقال:

– لا تخف يا صديق، سأخدمك وسأكون سعيداً بخدمتك يجب أن اعانقك، أتسمح؟

– حسناً حسناً كأس أخرى.

وشرب جافريلو وأحسَّ أن كل ما حوله يدور دوراناً منتظماً فآلمه

ذلك وأزعجه، وانطبعت على وجهه سيماء الإلهام الطائش وحاول أن يتكلم فلم يطق فتح فمهُ فانطلقت منه نغمات قاسية مبهمة، وأطال تشيلكاش التحديق فيه وهو يبرم شاربه ويبتسم ابتسامة أخرى، ابتسامة قاسية فيها وعيد.

وأفعمت الحانة العربدة والسكر ونام البحار الأشقر على منضدته ورأسه بين ذراعيه.

وأصدر تشيلكاش أمره وهو ينهض: هيا..

وحاول جافريلو أن ينهض فلم يستطع فانطلق في شتيمة مخيفة ثم في ضحكة سكرى حمقاء وقال له تيشيلكاش: حقاً إنك عجيب.

وعاد فجلس أمام جافريلو الذي استمرَّ في ضحكه وقد سمر أنظاره على سيده، وعاد تشيلكاش يدرس هذا الفلاح في برود وانتباه، وهو يشعر أن بين يديه رجلاً حياته وموته تحت براثنه، وأنه قادر على تسخيره في أموره، وأنه يستطيع أن يلقي به إلى هاوية العدم كما يلقي بقصاصة من الورق، وأنه يستطيع أيضاً أن يخلق له في قريته منزلاً هادئاً مرموقاً، وجعل يتلّذذ بهذا العشور: شعور أنه هو حقاً سيّد مُطاع، وأن هذا الرجل خادمه ومولاه، وأنه، هو الفلاح، لا يعرف أبداً تلك الأفراح التي شرب هو ثمالتها فيما مضى في حياته، وأحس بالحسد والرحمة والسخرية والاشفاق على هذه الطبيعة الشابة الفجة التي قد تقع في يدي رجل لا يرحمها.. ولكنه أشفق على هذا الفلاح إشفاق أب جائر، أن له فيه حاجة.. وعندئذٍ أمسك تشيلكاش بذارع جافريلو ودفعه في رفق وأخرجه من الحانة ثم ألقاه في ظل كومةٍ من الأخشاب، ثم جلس بالقرب منه وأشعل غليونه وتلفَّت جافريلو لحظة ثم جمجم بشيءٍ ثم نام..

- 3 -

وقال تشيلكاش لجافريلو وهو يمسك المجاذيف بيديه:

- والآن هل أنت مستعد؟

- دقيقة، السكان يضطرب، أأضربه بالمجذاف؟

- كلا! كلا! اعده إلى مكانه، وشده بيديك.

وقاد الرجلان قارباً راسياً عند مركب شراعي وهما يبذلان كل ما في وسعهما ليحدثا أقلّ ما يمكن من حس وحركة، وسار القارب بين مجموعة من المراكب تحمل خشب جوز ومراكب أخرى أفرغت نصف ما تحمل من خشب ونخل وصندل وسرو.

الليل مظلم شديد الظلام، والغيوم كثيفة تمزق أثوابها قطعاً قطعاً في السماء والبحر هادئ ساكن كأنه محيط من الزيت صقيل تتصاعد منه رائحة طعمها رطب مالح، ولرّبما غنّى غناءً فيه حياةً وخفر وداعب صخور الشاطئ ودغدغ جوانبَ المراكب وانساب فوقه قارب تشيلكاش في مهل وبطء وتراءت في عرض البحر أشباح المراكب الكبيرة السود، وقد نطحت سواريها السماء وعلى هذه السواري عُلِّقَت مصابيح ذابت أنوار مختلفات الألوان تنعكس على الأمواج فيبدو البحر منقطاً بنقاط صفر شاحبة تضطرب فوق سطحه المخملي الكثيف.

وكان البحر يشب وثبة جامحة في فترات منظمات، كأنما انبثقت في أعماقه قوّة خفيّة ثم يعود فيستلقي وينام نوماً عميقاً كأنه عامل أرهقه يوم كامل من عمل مضنٍ ساحق.

وقال جافريلو: - إلى أمام.

وضربت المجاديف صفحة الماء.

- لنسبح

أدخل تشيلكاش قاربه بين مركبين وسحبه سحباً، واشتعل الماء بلهيب أزرق فوسفوري عندما لامسته ألوح الخشب وامتدّ خلف القارب شقٌّ منير كأنه ثعبان من نار.

وسأل تشيلكاش صاحبه: ألريتته الصداع؟

- لا، يُخَيَّلُ إليَّ أن في رأسي جرساً يرن ويطنّ وسأسقيه جرعة ماء.

- ولماذا تسقي رأسك؟ أولى لك أن تسقي جوفك.

وقال جافريلو وهو يمسك بالقدح الذي قدّمه إليه تشيلكاش:

- أتظنّ ذلك؟ يا رب غفرانك

وشرب فقرقر بطنه قرقرةً راضيةً وصرخ به تشيلكاش وهو يمسك يده:

- أسأت استعمال ما سمحت لك به، كفى. كفى.

ومضى القارب مرة أخرى في طريقه صامتاً مسرعاً في بابل من السفن والمراكب، ونفذ فجأة من ركامها وامتد أمام البحّارين البحر الحر العريض، واسعاً لا يحيط به بصر، عظيماً مشعشعاً.. واختلط هناك بالسماء عند نهاية الأفق.. وتصاعدت فوق الأمواج نوع من غيوم سندسيّة خضر، ذات

جواش صفر، أو لازوردية كالبحر، أو زرقاء كالحجر، أو قاتمة قتام الخمول القلق الذي يُثقِلُ الفكر. والغيوم في السماء يطارد بعضها بعضاً في اتزان وتؤدة، ثم تختلط وتلتحم فكأنها قطعةٌ واحدةٌ، ثم تفترق ألف قطعةٍ وقطعة فتتداخل أشكالها وتمتزج ألوانها وأصباغها، ثم تعود فتتجمع في أشكال جديدةٍ هائلةٍ مخيفة. وإنك لتحس كأن في حركة هذه الأشياء التي ليس فيها روح نفحة علوية سامية، وإنك لتحس أن سوف تتصاعد من آفاق هذا البحر إلى الأبد غيوم أخرى لا يحيط بها عدد، سوف تتصاعد راغبة في أمر واحد: هو أن تخفي وراء حجابها الكثيف الذي لا يشفُّ عمّا تحته، هذه الملايين من العيون الذهبيّة اللامعة التي يسمونها النجوم، النجوم الحالمة الحية التي تنير هذه الأمواج الناعسة والتي تحمل إلى الناس المشدوهين بأنوارها المقدسة أكثر آمالهم صفاءً. وأسمى أمانيهم شرفاً ونبلاً.

وقال تشيلكاش: البحر! أليس البحر جميلاً؟

وأجابه جافريلو: ليس بقبيح، ولكن ركوبه مُقلِقٌ.

كان يجذف في بأس وتوازن، وصوت المجاذيف لا يكاد يُسْمَع، والشقّ الفوسفوري المنير يمتدُّ ويمتد.

وتمتم تشيلكاش في احتقار: مُقلِقٌ! يا للتفاهة!

كان هذا الشقيُّ الوقح يحبُّ البحر، إن مشهد هذه السعة التي لا حدَّ لها ولا عقال ولا عائق يدغدغ دغدغةً مسرفةً نفسيّته الظامئة إلى الإحساسات العنيفة، ولقد آلمه جواب جافريلو، بل لقد رأى فيه إهانة لعظمة هذا البحر الذي يحبه، وكان وهو يمسك دَفة القارب يمزق الأمواج تمزيقاً، وعيناه تائهتان في حلم بعيد ونفسه سابحة في رغبة جامحة

حادة حارة: أن يبحر إلى ما شاء الزمان فوق هذا البساط العريض المخملي. كان حين يركب البحر تمتلئ نفسه بعاطفة عنيفة وناعمة في آنٍ واحد، فيتطهر قليلاً من أدران الحياة التي يحياها، ويتذوّق شيئاً من هذه اللذة حين يشعر أنه أصبح أكثر خيراً وأقلَّ شراً في عالمه الجديد بين الأمواج والسماء، وحين يشعر أنه نسي في هذا الجو قليلاً من مرارة أفكاره، فتبدو له الحياة أقل قيمة وأدنى ثمناً. والبحر، في الليل يتنفَّس تنفساً خفيفاً كأنما هو نائم، وهو تنفسه هذا الهادئ اللطيف يحمل إلى قلب الإنسان نفحةً من السلام، ويحيد به قليلاً عن مباءة نزواته الآثمة، ويحمله حملاً رفيقاً إلى مرتع من نزعات سليمة صحيحة غير مريضة ولا سقيمة..

وسأل جافريلو صاحبه فجأة، وقد نظر إلى ما في القارب:

- ولكن قل لي أين الشبكة.

وانتفض تشيلكاش ثم قال: - هنا هنا...

وقال جافريلو في حذر: يا لها من شبكة.

- إنها قلوع...

وتلفع تشيلكاش فجأةً بخجل قوي عنيف، ماله يكذب عليَّ هذا الغلام، وعلام يخفي عليه غايته؟ ثم إن هذا الفتى قد انتزعه بسؤاله عن غمرة أحلامه، فهو آسف عليها وتملّكه الغضب وأحس في صدره بتلك الحرقة التي طالما ذاقها وعرفها واختنق بهذا التناقض الفجائي الذي وقع فيه. فقال لجافريلو هذه الكلمات الطائشات:

- أنت هناك فابق في مكانك. فذلك خير لك. لا تسأل عمّا لا يعنيك.

جئت بك لتجذف فقم بعملك واحفظ عليك لسانك إذا كنت تريد أن تسلم بجلدك. أفهمت؟...

وانقطع القارب عن السير وارتفعت المجاذيف عن الماء المزبّد وارتجف جافريلو قلقاً وخوفاً.

- سِرّ يا...

وانطلقت شتيمة حانقة فضربت الهواء بسوطها، وانحنى جافريلو على المجاذيف، وقفز القارب سريعاً غير منتظم، كأنما أصابه الذعر واشتدت ضرباته.

وأصدر تشيلكاش أمراً جديداً: - حسن سيرك.

وانتصب واقفاً وغمس شعاع نظراته الباردة في عيني جافريلو الأصفر الذي تختلج شفتاه رعباً وهلعاً وتجمّعت أعضاؤه حول نفسها، وانحنى إلى أمام متوثباً، وصرف بأسنانه وقعقع عظام يديه...

ورنّ على سطح البحر صوت رهيب: - من هذا؟

وزمجر تشيلكاش: - يا شيطان، جذف... لا ضجة يا كلب.. سأقتلك.

واحد اثنان. أصرخ: سأبعج بطنك.

ودمدم جافريلو. وقد هدّه التعب والخوف:

- يا مريم العذراء.

وغيّر القارب اتجاهه في يسر، ومضى إلى المرفأ، وقد أنارت الأنوار الكاشفة سواري المراكب.

ورنّ الصوت الرهيب مرّة أخرى: - من هناك؟

ولكنه كان قد أصبح أكثر بعداً فعاد إلى تشيلكاش اطمئنانه وقال في اتجاه الصوت.

- أنت الذي تصرخ يا رفيق.

والتفت إلى جافريلو الذي كان ما يزال مستغرقاً في دعائه وقال:

- لقد كنت باسلاً يا أخي، لو عرفنا هؤلاء الأباسلة لقدمت جلدك جزاء، لو عرفونا لقدمتك طعاماً لهذه الأسماك.

كان تشيلكاش يتحدث في هدوءٍ ورضا، أما جافريلو فكان ما يزال يرتجف خوفاً وهلعاً:

- أرجوك. دعني أذهب! دعني أذهب! بحق المسيح! ألقني حيث أردت.

هناك، هناك، هناك، هناك، لقد ضللت وأذنبت. خَفِ الله ودعني؟ وماذا تريد مني؟ أنا لا استطيع معونتك في عملك. وأنا لم أقم به قط. يارب رحمتك. الجريمة الأولى. هلكت يا أخي، ماذا تصنع بي؟ تكلّم قل لي جريمة واأسفاه مغامرة.

وسأله تشيلكاش في قسوة: وأيّة مغامرةٍ هذه؟ أيّة مغامرة؟

سرّه خوف هذا الفلاح. ولذّ له أنه وهو تشيلكاش، استطاع أن يخيفه مثل هذا الخوف.

- مغامرة... دعني يا أخي... بحقّ الله دعني. ماذا تستفيد مني يا صديقي؟

- اسكت. ألم تعلم أني لو لم أكن محتاجاً إليك لما جئت بك. إذن فأسكت.

وسمعه تشيلكاش يصلي: إلهنا الذي في السموات... فقال له ينتهره: كفى... كفى.

لكن جافريلو شرع ينتحب يائساً بائساً. أنه لم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأن يصبر أكثر مما صبر. فأنَ وتمخّط، وتحرّك في مقعده، وهو ما يزال يجذّف يدفعه اليأس والخوف.

ومضى القارب سريعاً كأنه سهم فاجتاز كتل المراكب مرّةً أخرى ودار على نفسه كأنه حلزون في الممرات الضيقة بينها.

انتبه إذا كان رأسك غالياً عليك فاخرس إذا نادانا أحد. أفهمت؟

وكان جواب جافريلو الوحيد: آه.

ثم أضاف: قدّر الله أن أضلّ وأهلك.

وصرخ تشيلكاش في صوت أجش مختنق:

– كفاك خواراً.

وعند ذلك بلغت بلاهة جافريلو أقصاها، فصمّم على انتظار نهايته في صبر وجمود، وبحركة آليّة أولج مجذايفه في الماء ثم ألقاها وراءه، ثم أخرجها من الماء، وغمسها فيه مرةً أخرى، وعيناه عالقتان بقبقابه الخشبي: في همهمة هذه الأمواج إنذار شديد ووعيد.

ها هو ذا المرفأ...

من وراء الحائط الحجري تتصاعد ضوضاءٌ من كل نوع: أصوات الناس، خرير المياه، الأغاني، الصفير، ودمدم تشيلكاش:

– قف، دع المجاذيف. أمسك الحائط بيديك. رويداً أيها الحيوان.

وانحنى جافريلو على الرصيف الناعم الأملس وزحف بالقارب على طول الحائط صامتاً أخرس. وقال تشيلكاش:

قف، هات المجاذيف. أين جواز سفرك؟ في الكيس؟ هات الكيس أسرع أسرع يا صديقي الطيب. لن تفرّ الآن، ستهرب بلا مجاذيف، ولكنك لن تهرب بلا جواز. ابق هنا. وتذكر أنك لو نبست بكلمة واحد لقذفت بك إلى أعماق البحر، وقفز تشيلكاش فجأةً وفي يده شيءٌ ثم توارى وراء الحائط.

واعترت جافريلو هزّة.. حدث هذا كلّه في سرعة غريبة، وخُيّل إليه أن معطف الخوف الثقيل الذي كان يجثم فوق صدره وهو في رفقة هذا اللص ذي الشاربين الكبيرين، ذي الوجه الأجرد، قد سقط فجأة عن كتفيه.

الآن يجب أن يفرَّ...

ونظر إلى ما حواليه وهو يزفر زفرة النجاة والخلاص. هناك إلى يساره مركب اسود كسرت ساريته فكأنه تابوت فارغ ألقي هناك، وكأنه حين تلطمه الأمواج يزفر زفرة قاسية رهيبة صماء، وهنالك إلى يمينه سور المرفأ ينغمس في الماء كما تنغمس الحيّة الرقطاء ثقيلة باردة، وهنا من ورائه كتل سود أخرى لمراكب كأنها هياكل عظمية منتصبة، وأمامه بين الحائط وبين المركب النعش تنبسط وحدة صامتة يوحيها حائط ترصه الأمواج السود يتبع بعضها بعضاً ضخمة بطيئة ثقيلة ذات ظلال مخيفة، ولكأنها مستعدةٌ إلى القاء كلاكلها على الناس فتسحقهم سحقاً وتغمرهم غمراً وفي ثنايا الهواء يرفرف شعور حزين بارد مظلم زاد في خوف جافريلو بل لقد

كان هذا الخوف الوهمي طاغياً على الخوف الحقيقي الذي أوحاه تشيلكاش، وانقبض صدره، فكأنما هو خرقة بشرية محزنة ملقاة على مقعد القارب. وهيمن على ما حوله صمت عام شامل، لا يعكره معكر غير أنين البحر أنيناً خافتاً يُخَيَّل إليك معه أنه سوف يطغى على هذا الهدوء طوفان من الضجة والضوضاء مخيف جبار فيحطمه تحطيماً، طوفان سوف يخض هذا البحر خضاً فينقلب أعلاه أسفله، وسوف يسوق في جنبات السماء الأربع قطعاناً من الغيوم السود، وسوف يمزق فوق وحدة هذه الأمواج اللانهائية كل ما على البحر من مراكب سود.

أما الغيوم فكانت لا تزال تمتد في الأفق في هدوئها القديم ولكنها تمتد دون انقطاع وتتصاعد من صدر البحر غيوم أخرى حتى لكأن السماء نفسها أصبحت بحراً لجباً صاخباً يمتد فوق صدر بحر آخر صامت هادئ نائم.

وكانت بعض الغيوم توحي إليك أنها أمواج راكضة تسرع إلى غزو الأرض وهي تحرّك ذوائبها القاتمة وكانت بعض الغيوم الأخرى تظهر كأنها حفر عميقة خطّتها الريح بين الأمواج وكانت هنالك غيوم أخرى تشبه تلك التموجات الرقيقة التي تبدو على سطح الموجة الكبيرة قبل أن تتحوّل إلى تاج من الزبد الأخضر.

سيطر هذا الهدوء الفاجع الهائل على جافريلو وأدرك حينئذ أن أمنيته الأولى هي في أن يعود إليه سيده، نعم، لقد تأخر سيده في عودته!

كانت الدقائق تمرّ واحدة بعد واحدة في بطءٍ يفوق بطء الغيوم التي تجر نفسها جراً في السماء. وفجأةً سمع في الماء وراء الحائط غمغمة خافتةً

وانسياباً هادئاً ثم دمدمة كاد يسقط جافريلو ميتاً خوفاً منها وهلعاً. وقال تشيلكاش في صوت أصم:

- أفأنت نائم؟ خذ:

وسقط في القارب شيءٌ ثقيل مربع الشكل ثم تبعه شيءٌ آخر مثله وتمددٌ على طول الحائط شبح تشيلكاش الطويل، وظهرت مجاذيف القارب في حركة سحرية وارتمى كيس جافريلو فوق قدميه ثم عاد شخص تشيلكاش وهو ينفخ إلى مكانه عند السارية ونظر إليه جافريلو وهو يبتسم ابتسامة فرح وكآبةٍ في آنٍ واحد وسأله في حنان: - أأنت تعبان؟ - قليلاً أيها الحمل الوديع، عد مسرعاً وابذل كل جهودك وسيكون لك ربح وفير يا أخي! الآن انتهينا من نصف قضيتنا وبقي علينا أن ننتهي من نصفها الآخر فيجب أن نعبر منطقة الخطر دون أن ترانا عيون هؤلاء الاباسلة الملاعين. وعمّا قريب تستطيع يا صاحبي أن تذهب وفي جيبك دراهمك إلى صديقتك ماشكا، فإن لك ماشكا تنتظر يا أخي. وانفتح صدر جافريلو وتشجّنت يداه، وقال: - لا... لا.

كان الماء يضطرب تحت القارب، ويتسع الشقّ من ورائه، وتصبب العرق على وجه جافريلو ومع ذلك فقد ظلَّ يجدِّف بأقصى ما يملك من سرعة وعزم. إنه ذاق في هذه الليلة طعم الخوف مرتين فجعل أكبر آماله أن يتخلص من خوف جديد وأن ينتهي من هذا العمل الجهنّمي سريعاً، وأن يمّس الأرض بقدميه، ثم أن يهرب من هذا الرجل هرباً قبل أن يقتله أو قبل أن يلقي به في غياهب السجن شريكاً مجرماً.

قرر أن لا ينبس ببنت شفة وأن لا يردَّ عليه بكلمة، وأن يقوم بتنفيذ

كل أوامره تنفيذاً حرفياً ونـذر، إن تخلـص منـه أن يرتـل ترنيمـة «القـديس نقولا».

وتصاعدت من أعماق قلبه إلى ذرى شفتيه صلاة حـارة خاشـعة، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه فشهق شـهقة شـديدة كأنهـا زفـرة مرجـل بخاري وسكت، وهو يلقي إلى تشيلكاش نظرة شـزراء أمـا هـذا فكـان يحني قامته العجفاء الطويلة إلى أمام كأنما هو طير جـارح يهـم أن يطـير، وهو ينبش الظلمات نبشاً بعيني عقاب وأنفه، وهو منقـار نـسر، يهتـز في وعيد وتهديد، ويداه يـسيِّر القـارب بإحـداهما ويفتـل بثـانيتهما شـاربيه وكانا يهتزان اهتزازاً لا ينقطع فـوق شـفتين دقيقتـين مـشنجتين تـشنجاً أخرس.

انتصر تشيلكاش ففرح بنجاح مشروعه بادراكه لقيمتـه الشخـصيّة، بما استطاع أن يلقي في روع هذا الفلاح الذي أصـبح لـه عبـداً مـن خـوف ورعب، وفكر في العيد العظيم القادم الذي سيحتفل بـه غـداً، ولـذَّ لـه أن يراقب قوته وسيطرته وضعف هذا الفلاح الطاهر وعبوديّتـه، وأحسّ أنـه يشفق عليه وأنه ينبغي أن يواسيه فقال له في رفق:

– قل لي: هل خفت كثيراً؟

وقال جافريلو وهو يسعل ليخنق زفرة تحرق صـدره:

– لا بأس.

– لا ترهق نفسك بالمجاذيف، لم يبـقَ أمامنـا إلا ممـر واحـد صـعب فاسترح قليلاً. وأطاعه جافريلو فانتصب واقفاً ومسح بكم قميـصه وجهـه المبلل بالعرق ثم قبض على المجاذيف وقذف بها في الماء.

- انتبه وجذف في رفق فلا يسمع لمجاذيفك صوت فعلينا أن نجتاز ممراً مهلكاً.

رفقاً رفقاً، إن هنا يا صديقي أناساً لا يعرفون المزاح فإذا مزحوا كانت بنادقهم أداة مزاحهم، وعندئذٍ تُعرِّض رأسك لاستقبال هدية جميلة لا تتيح لك وقتاً تقول فيه آه...

وزحف القارب فوق صدر الماء هادئاً فلا ترى إلا قطرات من الماء زرقا فضية تسقط من المجاذيف، وتشتعل حين تلقى البحر أكثر تشعشعاً ولهباً. وبدت عتمة الليل وصمته أكثر كثافةً واتساعاً، وتراءت السماء محيطاً صاخباً تكسوه الغيوم ثوباً ثقيلاً غير شفاف يستلقي فوق صدر البحر جاثماً رابضاً، وبدا البحر الذي أصبح أكثر هدراً وظلاماً، كأنما أضاع شيئاً من لا نهايته وعوّض عنها برائحة حارة لافحة مالحة.

ودمدم تشيلكاش:

- حبذا لو هطل المطر، إذن لسرنا في حمايته.

وعن يمين وعن شمال في كتلة من الأمواج السود تبدو كتلة من المراكب السودن تنصب أشباحها الساكنة المزعجة، ترجَّح نور فوق ظهر مركب منها، هنالك من يمشي يحمل مصباحاً.

ودمدم تشيلكاش: الجمرك.

أحسّ جافريلو وهو يتلقى الأمر بالسير دون صوت، بقلق مثير عاد فاستبّد به مرة أخرى، وخُيِّل إليه، وقد انحنى إلى أمام، وهو ينبش الظلام نبشاً، أنه يكبر ويكبر، وأن عظامه وأعصابه أصبحت أكثر امتداداً، وأنها تؤلمه ألماً أخرس، وأنَّ في رأسه ضغطاً شديداً وأن عموده الفقري يرتعش ارتعاشاً

راعداً وأن قد وخزت ساقيه ألف إبرة من جليد، وغشي عينيه حريق أشعله مـا بذل من جد في اكتناه ظلمات الليل، هذه الظلمات التي ينتظر بين حين وحين أن يفاجئه فيها مفاجئ فيقول له: - «مكانك أيّها الشقي».

وانتفض جافريلو مرةً أخرى حين سمع تشيلكاش يقول:

- الجمرك...

وانفجرت في عقله فكرة حادة انتعشت لها أعصابه المرهقة أراد أن يعق وأن يصرخ بكل ما في فكيه وحنجرته من قوة: النجدة... النجدة... بل أنه فغر فاه فعلاً، ولكن ماله وقد جُنِّدَ له الخوف بسوطه يغمض عينيه مصعوقاً ويقع خائر القوى فوق مقعده.

وانبثق من بين الأمواج المظلمة وأمام القارب في الأفق البعيد سيف عظيم ذو لون ازرق لامع فوخز الظلام وخزاً ولامست الشفرة الملتهبة وجوه الغيوم ثم رسمت على صفحة البحر خطاً عريضاً أزرق، فأبرزت مراكب كانت سوداء يغمرها الظلام فأنارتها، وكأنها كانت هذه المراكب منذ زمن بعيد قد ابتلعتها الأمواج على إثر عاصفة جامحة وإذا بهذا السيف الحاد يعيدها من جديد إلى سطح البحر لتتأمل مرة أخرى في أمواج الماء وعظمة السماء، وكأن هذه الأخشاب والخرق التي تحيط بسواريها أعشاب بحرية تتشبث بهؤلاء العمالقة ثم تخرج معهم من أعماق البحر لترى ما يرون وتسمع ما يسمعون.

وارتفعت شفرة النار المخيفة مرة أخرى فاخترقت حجاب الليل ثم تمدَّدت على جانب آخر من البحر، وهناك أيضاً برزت مراكب كانت منذ لحظة متوارية في زوايا العدم.

وقف قارب تشيلكاش مترجّحاً كما تشاء له الأمواج أن يترجّح، فلو رأيته لقلت إنه إنسان متردد، وأما جافريلو فكان مستلقياً في جوف القارب قد غطى وجهه بيديه ووكزه تشيلكاش برأس المجذاف وهو يشتم ويقول في صوت مختنق:

– هذا نور الجمرك يا أبه.

هذا هو المنار الكهربائي.

أتريد أن تنهض أيها النجس.

سيوجهون النور إلينا وستكشفنا غباوتك أيها الشيطان اللعين.

ودفع المجداف دفعاً في كليتي جافريلو فانتصب واقفاً ثم جلس على مقعده وهو لا يزال يغمض عينيه خوفاً، وأمسك بالمجذاف وجعل يسير القارب.

– رويداً رويداً وإلا قتلتك. رويداً رويداً أيها الأبله. وعلامَ تخاف؟ أمصباح ومرآة؟ أنقطة واحدة تخيفك. رويداً رويداً. أيها الشيطان إنهم ينيرون البحر بمرآة يديرونها كما يشاؤون رغبةً في اكتشاف أمثالنا من طالبي النزهة والرياضة، فهم يكافحون التهريب. لا تخف لقد أصبحنا خارج منطقة الخطر ونجونا يا أخي. ومع ذلك.

وألقى تشيلكاش حواليه نظرة انتصار:

– نعم لقد نجونا.. آه آه.. إنك ذو حظ عظيم أيها اللوح المتفسّخ.

كان جافريلو يجدف ولا يسمع ولا يجيب، وضاق عليه تنفسه، وفتح عينيه ليلمح الأفق الذي تضطرم فوقه الشفرة اللامعة صاعدة هابطة، وهو يأبى أن يصدق أن هذا هو مصباح وكيف يصدق وهذا النور الأزرق يخترق

الظلمة فيلقي على الأمواج ألواناً من كل نوع، وذلك ما لا يستطيع أن يفهمه وأحس من جديد أن قد أرهق دماغه ضغط مخيف، وقبضت على قلبه يد قاسية وشعر سلفا بمأساة سوف تنزل بساحته، ولكنه ظل يجدف تجديفاً آلياً وهو مرهق خائر، لا أمل له ولا نفس فيه، يحني ظهره انتظاراً لضربةٍ يتوقعها ستهبط عليه من السماء فتقصم ظهره قصماً، وفرّ من خلايا جسده كل ما فيها من حيويّة إنسانيّة حطمتها هيجانات هذه الليلة الليلاء.

وأما انتصار تشيلكاش فكان انتصاراً رائعاً. وأما نجاح مشروعه فكان نجاحاً كاملاً. فعادت أعصابه إلى سابق هدوئها واستقرارها، وهزّت شاربيه رعشة الفرح والغبطة، ولمع في نظراته شعاع من الرضا والطمأنينة، وشعر بالعافية تملأ برديه فصفر وملأ رئتيه برطوبة هواء البحر ورأى جافريلو فابتسم له ابتسامة مفعمة بالصداقة والود.

واستيقظ الهواء فأيقظ البحر من رقاده، وجعلت ألوف من الأمواج الصغيرة يزاحم بعضها بعضاً ويغزو بعضها بعضاً ورقت حواشي السحب وشفّت ودغدغ النسيم صفحة الأمواج وبقيت هنالك مجموعة من الغيوم السود ما تزال غارقة في حلمها الوجيع.

- قم يا أخي فقد آن لك أن تصحو لكأن روحك هزّها الموت هزاً في جلدك محاولاً انتزاعها... وكأنّك كيس محشو بالعظام. أيها الصديق الطيب لقد نجحنا.

هذا صوت إنسان يسمعه جافريلو فيدخل إليه الثقة والطمأنينة، وما عليه أن يكون هذا الصوت صوت تشيلكاش، وتمتم في خفوت:

- سمعت.

- تعال. أيتها العجينة الرخوة، فاجلس عند السارية وأستلم عنك المجاذيف. فأنت مرهق.

وبدّل جافريلو مكانه تبديلاً آلياً، وأحس تشيلكاش أن صاحبه يكاد يسقط إعياءً، فزاد هذا من شفقته عليه، فربت على ظهره وقال:

- لا تخف ولا تجزع، فلك عندي جائزة ترضيك... أيكفيك خمسة وعشرون روبلاً؟

- لا أريد شيئاً، أريد فقط أن أطأ الأرض بقدمي.

وهز تشيلكاش يديه هزّة غامضة ثم بصق وقبض على المجاذيف وألقى بهما بعيداً..

وتمت يقظة البحر وغطى أمواجه بهالة من الزبد ثم ألقى ببعضها فوق بعض فحطمها جميعاً على طبقة من الطحلب، فاهتز الزبد ورقص وتفقّع، وملأت الهواء تمتمة عذبة كأنها نغم منسجم، وفرقعة حلوة، وعادت الحياة إلى الظلال.

- حدّثني قليلاً عن مستقبلك، ستذهب عما قريب إلى قريتك فتتزوج، وتبذر الحقل، وستلد زوجتك كثيراً من الأطفال بنين وبنات، لا تكاد تجد لهم خبزاً يكفيهم، وتقضي هكذا ما بقي لك من عمر، فهل يبدو لك هذا لذيذاً طيباً...

وأجاب جافريلو في خجل ودهشة!:

- وكيف تكون مثل هذه الحياة لذيذة، ولكن لابدّ مما ليس منه بد.

واستطاعت الريح أخيراً أن تظفر بتمزيق رداء الغيوم من ها هنا ومن ها هنا، وبرزت من خلال هذه الشقوق سماء زرقاء تلمع فيها توالي

النجوم فتعكس أنوارها على البحر، على أواذي الأمواج حيناً ثم تختفي حيناً.

– خذ شمالاً، وسنصل عمّا قريب، هذا عمل مجيد حقاً، ليلة واحدة وخمسمائة روبل، أليس يستحق هذا ما بذلنا في سبيله من جهد وعناء.

وقال جافريلو في حذر: خمسمائة روبل!.

واستبدَّ به الخوف، فراز بقدميه الطردين المترنحين في بطن القارب ثم سأل ما هذا؟ – حرير. قليل الوزن كثير الثمن لو بعناه بأثمانه ربحنا ألف روبل، ولكنني لا أحبّ أن أغلّي بضاعتي أليس في هذا ما يضحك؟

وتنهّد جافريلو وقال:

– هل هذا صحيح؟ آه.. لو كان هذا صحيحاً...

وتذكر قريته النائية البائسة وأمه العجوز، وكل أولئك الأشياء البعيدة العزيزة التي هام على وجهه متشرداً في سبيلها ليجد عملاً، والتي من أجلها قاسى ليلته هذه ما قاسى من ذعر أسود وموت أحمر، وبللت أمواج الماضي تراب ذاكرته وبدت له قريته تتمدد على صدر رابية، وقد جرى نهرها وراء رداء الصفاف والحور والعليق، وحملت إليه هذه الذكريات والخواطر شيئاً من الشجاعة وقليلاً من السلوى، فتصاعدت من قلبه أنّة فيها حزن وفيها أمل:

– رحماك يا رباه.. ما أحلى الحياة..

– نعم سأراك، وأنا هنا، تهرع إلى قطارك ثم... سلام.

عليك يا قريتي العزيزة. وكأني بك معبود الفتيات وحلم الصبايا. لا

يشغل بالك إلا أمر واحد: أيهنَّ أنتقي؟ وستبني بيتك جديداً كله... بل لعلّ هذا البيت الخشبي لا يكفيك.

- بيت خشبي. كلا: إن الخشب في بلادنا غالٍ وعزيز.

- إذن فسنكتفي بإصلاح بيتك القديم. ألك حصان؟

- حصان؟ نعم حصان أعجف عجّوز.

- إذن فستشتري حصاناً قوياً.. وبقرا.. وغنماً.. ودجاجا فما رأيك؟

- وعلام تحدثني عن كل هذا؟ حقاً.. أني سأحيا حياة طيبة.

- نعم ستحيا حياة طيبة.. لقد تذوقت أنا كذلك أيّها الأخ طعم هذه الحياة..

لقد كانت لي حياتي الخاصة.. ومنزلي الخاص... وكان أبي فلاحاً غنياً في قريتنا.

كان تشيلكاش يجدف في قوّة وعنف، والقارب يقفز على ظهور الأمواج والبحر ما يزال غارقاً في حجب الظلام يزداد ثورة وهياجاً ويرنح هذين الرجلين اللذين ينظران إليه في غير اكتراث، وعيونهما تائهات في حلم عميق بعيد...

ولم يكن تشيلكاش، حين ذكر لصاحبه جافريلو قريته وحياته، إلا راغباً في أمر واحد: هو أن يسكّن من روع صاحبه ويدخل إلى نفسه شيئاً من الهدوء والاطمئنان، ولكنه لم يدرِ أنه سيكون هو نفسه هدفاً لسهامه، لم يدرِ أن ذكريات الأفراح القرويّة التي حُرِمَ منها منذ أمدٍ بعيد، والتي ظنَّ أنه نسيها ونسيها إلى الأبد، ستجرفه في تيارها جرفاً، لم يدرِ أنه سيقع في الحفرة التي حفرها ليوقع فيها غيره، ولكن ذلك كلّه هو الذي حدث له، فها هو ذا

يشرع في ذكر عواطفه وحياته، ويعرض عن حياة الفلاح وعواطفه، ها هو ذا يتحدّث في حماسة واندفاع:

– أرأيت يا أخي؟ أن حريّة الفلاح هي أغلى ما يملك، عش سيد نفسك ليكن البيت الذي تسكنه بيتك لا يملكه غيرك، ولا عليك أن يكون رخيصاً صغيراً. لك أرض حقاً أنها ليست إلا قبضة من تراب. ولكنها أرضك أنت... لك دجاجتك وبيضها ولك بطتك وريشها.. إنّك إذن ملك ذو تاج وذو عرش.

وشيءٌ آخر: كن في حياتك ذا نظام. أشرق الصبح فانهض من فراشك وسر إلى عملك. الربيع يدعوك إلى عمل، والصيف يناديك إلى عمل آخر، والخريف يدفعك إلى عمل ثالث، والشتاء يطلب منك عملاً رابعاً. لك نهارك فجل فيه ما طاب لك أن تجول وصل فيه ما طاب لك أن تصول، فإن بيتك إذا أدبر النهار وقدم المساء يفتح لك أبوابه ويقول لقد آن لك أن تستريح. وستستريح وتسعد وتعيش. قل لي بعد ذلك: ألست ملكاً؟

ومضى تيشلكاش في شاعريةٍ واندفاع يعدد أفراح الفلاح ومزايا حياته وقد نسي نسياناً كاملاً ما على الفلاح من تبعات وجافريلو يصغي في دهشةٍ وفي حماسةٍ، وقد أنساه هذا الحوار كل ما فعله به صاحبه، وأصبح لا يرى فيه إلا فلاحاً مثله، فلاحاً لاصقاً بالأرض، وبما تقتضيه من أعمال، وبما طوته في بطونها من جهود أجيال متتابعة قبله وأجيال كثيرة بعده، وجيل حاضر فتي، فلاحاً ترك أرضه مختاراً وهرب من متاعبها وطلباتها، وها هو ذا يندم لفراقها ويأسف لتركها ويلقى على فراقه هذا عقاباً قاسياً شديداً.

– نعم... نعم أيها الأخ... آه ما أصدق قولك. لنضرب، حياتك أنت نفسك لقد تركت الأرض.. وظننت أنك قد تخلصت منها ولكن ما هي الأرض في نظرك الآن. إنها الأمُّ الحنون التي لن نستطيعَ نسيانها.. وفجأةً عادت إلى تشيلكاش نفسه كلها فوجدها وجداناً كاملاً وشعر في صدره، بحرقة ناقمة لاهبة يشعر بها عند كل وصمة تلطّخ حبّه لذاته، كمغامر لا عمل له ولا مال عنده، وأشدّ ما في هذه الوصمة الحاضرة أنها صدرت عن شخص لا قيمة له ولا وزن، فانتفض وقطع حديث القروي الطائش وقال: – يا لك من ثرثار. أتظنّ أني صدقتك في حديثي عن القرية؟ كلا فأنا أكثر قيمة ممّا تسمع وتظن. ورجع إلى جافريلو حياؤه وخجله فقال في تردّد: – أيُّ رجل أنت؟ لست أتحدث عنك، ولكني أقول إن هنالك كثيراً من الناس مثلك، وأسفاه. إن على الأرض كثيراً من الأشقياء، من الحفاة العراة. وأصدر تشيلكاش أمره حاسماً قاطعاً: – خذ مجاذيفك أيها العجل... وبذل تشيلكاش جهداً ليخنق ما يضطرب في حلقه من شتائم. وتبادلا مكانيهما، ومرَّ تشيلكاش وهو في طريقه إلى المقعد بالطردين وأحس برغبةٍ جامحة تدفعه إلى أن يقذف بجافريلو فيُلقيه في البحر، ومع ذلك فما كان يستطيع أن ينظر إليه في وجهه، وسكت الرجلان. ووجد تشيلكاش في هذا الصمت نفحة من نفحات القرية وجعل يستعرض ماضيه ونسي القارب الذي جمح به عن الشاطئ إلى عرض البحر، وكأن الأمواج التي دفعت به تعرف أنه يسير إلى غير هدف فعبثت به عبثاً وأرقصته رقصاً، واستعرض تشيلكاش صور الماضي كلّه، وهذا الماضي العجوز الذي يفصله عنه أحد عشر عاماً

قضاها متشرداً تائهاً، أحد عشر عاماً تفصل بين حاضره وماضيه كأنها حائط شاهق من حجر، ورأى أمه الفلاحة السمينة ذات الخدود الحمر والعيون العسليّة الطيبة، ورأى أباه العملاق ذا الذقن الصهباء والطلعة المتجهمة ورأى نفسه خطيباً ثم عروساً. وتذكر زوجته (انفيسا) وعينيها السوداوين، وشعرها الطويل، زوجته البضة الناعمة المرحة.. ورأى أنه أصبح جندياً متعجرفاً فخوراً من رجال الحرس القيصري، وعاد فتذكر أباه وقد وخطّ الشيب فوديه وهدّ التعب جسده، وأمّه وقد قَصَمَ الجهد ظهرها قصماً فجعلت تمشي وعيناها في الأرض، وتذكر ذلك العيد عندما عاد إلى القرية من الجندية فاعتزّ أبوه بولده «غريشكا» ذي الشاربين المتنفخين كشاربي الهر، بهذا الجندي القوي الذي كان زير نساء القرية.. تلك هي الذكريات.. الذكريات التي تزيد البائسين بؤساً، الذكريات التي تبعث الحياة في الأشياء الميتة.. الذكريات بما فيها من حسنات ومن خطيئات يلقي فيها بنفسه، وقد فقد كل أمل في تحسين المستقبل، في أحضان حب الماضي حباً شاذاً عضياً ليس فيه نفع ولا من ورائه خير. ودغدغت تشيلكاش نفحة صامتة هبّت عليه من ذلك الجو الذي رآه حين ولد ورأت فيه النور عيناه، نفحة تهمس في أذنيه نغمات الحنان، حنان أمّه، ونصائح أبيه. وهكذا استطاعت نفخة واحدة أن تنفذ إلى قلب هذا الفلاح الجبار فيتذكر كل ما نسي من أنغام ونأمات، ويستعيد كل ما تنشق من عطور وطيوب تنبعث حارة دافقة من جنبات الأرض حين ينجلي عنها الثلج في الربيع، وتنبثق طيبة منعشة من شقوق الفلاحة الحديثة، ومن تلك الحقول التي يكسوها القمح بساطاً أخضر من حرير.

ولكن ها هو ذا يمدّ يده فيمزق ثوب الذكريات ويعود إلى حاضره طريداً متشرداً وحيداً، لا أسرة له يأوي إليها، ولا بيت يلجأ إليه، محروماً إلى الأبد من تلك الأرض الطيبة التي يُدينُ لها بما يجري في عروقه من دم وحياة. وسأل جافريلو صاحبه: - إلى أين نسير؟ وانتفض تشيلكاش ثم تلفّت حواليه كأنه وحش وقع في فخ ثم قال: - لا شيء.. أسرع.. وصلنا. وعاد جافريلو يسأله ويبتسم: أكنت في منام؟ وتطلّع إليه تشيلكاش متقصياً أعماقه، وعاد إلى الفلاح هدوؤه، بل قد أصبح مطمئناً غيرَ قلق، بل قل أنه أصبح فرحاً مرحاً، بل إنه يكاد يكون فخوراً. أنه شاب وأن أمامه حياة طويلة مديدة. - أنا متعب جداً... والقارب يقفز. - نعم إنه يقفز، ولكن هل نجونا من خطر القبض علينا وعلى هذين؟ ورفس برجله الطردين المتمدّدين. - كلا.. لا تخشَ شيئاً.. سأسلمهما وأقبض ثمنهما فوراً. - أخمسمائة روبل؟ - على الأقل. - إذن فتلك ثروة... حبّذا لو كانت لي... إذن لفعلت بها وفعلت. _ أفي قريتك ستعيش وتعمل؟

- نعم.

ومضى جافريلو يسبح في أحلامه، وتشيلكاش ساهم شارد، تشعّث شارباه، وابتلّت ثيابه بالماء، وغارت عيناه في محجريهما، وانطفأ بريقهما انطفاء، وتبدى خائر القوى يستحق الشفقة والرحمة واختفى ذلك النصر الجارح الذي كان في أبراده: إنه ليس إلا رجلاً معدماً فقيراً، قذر الثياب، تائهاً في ضباب من الأوهام تفل القوة وتقتل العزيمة.

- أنا متعب، مرهق. وسكت ثم قال: - وصلنا.

وحوّل وجهة القارب في سرعة إلى كتلة سوداء عائمة على سطح الماء، والسماء مرتدية ثوباً من الغيم وحيد اللون والشكل، والمطر ينهمر ويضرب ذرى الأمواج ضربات واضحة.

– قف! رويداً رويداً.

ولمست مقدّمة القارب جانب مركب هناك، واستطاع تشيلكاش أن يمسك حباله بعرجون كان معه ثم صاح: أينام الشياطين في مثل هذا الوقت؟ السلّم مرفوعة، والمطر يهطل كأنه لا يستطيع أن يهطل قبل الآن.

– أيّتها الحشرات! أين أنتم؟

وسأل سائل لا يكاد يُسمَعُ صوته: أهذا أنت يا تشيلكاش؟

– هيا أنزل السلم – أهلاً وسهلاً.. أنزل السلّم يا عفريت.

– ما لك متجهّماً؟؟ – اصعد يا جافريلو.

وكانا بعد دقيقة واحدة، على ظهر المركب.

هناك في جانب من جوانب المركب ثلاثة رجال طوال اللحى يتحاورون ويبصّون من خلف السلّم قارب تشيلكاش، وجاء رابع إلى تشيلكاش يجر ثوبه فصافحه وهو لا يتكلم، ثم نظر إلى جافريلو في حذر، وقال تشيلكاش:

– دع الدراهم لديك إلى غد. أما الآن فأنا أريد أن أنام. تعال يا جافريلو. هل أنت جائع؟

– كلا ولكنني أكاد أسقط نعساً.

ومضت خمس دقائق فإذا بجافريلو قد غطّ في نوم عميق صاخب فوق ظهر المركب. وجلس تشيلكاش وخلع نعله يصلحها هكذا، غاضباً

حزيناً، ينفخ ويبصق، ثم تمدد على ظهر المركب. إلى جانب جافريلو ولم يتكلف خلع نعله الأخرى، ووضع يده على وجهه، ومطّ شفتيه.

كان المركب يترجح على موجات البحر الخفيفة، وقد انبعث منه صرير خشبي حزين لا يُعرَفُ مكانه، وقطرات المطر تسقط ميته على ظهره، وقد حوّمت في الهواء كآبة عامة شاملة، ترافقها شكوى ناعمة كأنها أغنية ترتّلها أمٌّ على سرير ابنها وقد يئست من سعادته.

ورفع تشيلكاش رأسه وألقى حواليه نظرة، ثم عاد فتمدّد وهو يلمذم، وكأنما هو، في استلقائه، شعبتا مقص ضخم كبير.

- 4 -

أفاق تشيلكاش فانتفض انتفاضة القلق، ولكنه سرعـان مـا عـاد إلى طمأنينته، ونظر إلى جافريلو وكان ما يزال يغطّ في نومه ويشخر وقـد علـت وجه هذا الطفل القروي ابتسامة رائعة، وتنهّد تشيلكاش ثم هبط سلّماً مـن حال ومضيء، وأشرق النهار حزيناً متجهماً كأيام الربيع.

وغاب ساعتين، ثم عاد ووجهه زاهي اللون، وشـارباه مفتـولان في عزّة وفخار، وابتسامته عريضة مفعمـة بـالعطف والحنـان، وحـذاؤه عـالٍ متماسك، وسترته وسرواله جديدتان نحاسيّتان من نوع لبـاس الـصيادين. نعم إن لباسه هذا رثٌّ قليلاً ولكنه جيّد، يخفي ضـمور صـاحبه ويهـب لـه منظر الرجل الممتلئ.

ودفع جافريلو بقدمه صارخاً: هيّا هيّا أيّها الحمل الصغير.

واستيقظ جافريلو مذعوراً يرتجف، ولم يعرف سيّده أول الأمر فنظر إليه في خوف أضحك تشيلكاش، فصرخ الفلاح وقد عرفه:

– ما أجمل هذه الثياب. كأنك وجيه كبير.

– وجاهة مؤقتة ذاهبة عما قليل، قل لي كم مرّة ظننت هذه الليلة أنك ميت لا محالة.

– كثيراً، تلك أول مغامرة أشترك فيها.

– وهل ستعود إلى مثلها.

– أعود!! يجب أن أعرف أولاً مقدار ربحي. هذا هو المهم.

– مائتا روبل.

– مائتا روبل؟ أنا موافق.

– وروحك؟

– روحي قد لا افقدها. وقد يُتيحُ لي هذا العمل أن أبقى رجلاً ما حييت. وجعل تشيلكاش يضحك.

– حسناً.. حسناً فاستعد فسنعود.

وهبطا إلى القارب وأخذ تشيلكاش الدفة وأمسك جافريلو بالمجداف. الغيوم السوداء تغطي السماء، والبحر الهائج يبعث بالقارب على ألحان الأمواج التي ترشهما بمائها المالح، وبدا هنالك في الأفق البعيد أمام القارب، المرفأ وقد رسم خطاً رملياً أصفر، وامتّد من ورائه بحر صاخب تتدافع فيه الأمواج كتائب، متوّجة بالزبد وعن يمينها مراكب تترجج وتميس، ومن خلال غابة الساريات، بدت منارة المدينة البيضاء تتصاعد منها ضوضاء كأنما تحملها أعناق الأمواج فتخلطها بضوضائها الصافية العظيمة. وهيمن على هذه الأشياء كلها ضباب خفيف كأنما هو ثوب يفصل بين الأشياء ويسجن في حدوده كل الأشياء.

وأشار تيشيلكاش برأسه إلى عرض البحر وقال:

– سيرقص البحر الليلة رقصة هائلة. وسأل جافريلو، وهو يجذِّف بقوّة، والرذاذ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

– أعاصفة؟

- نعم.

ونظر إليه في اهتمام ثم سأله وقد رأى صمته:

- كم أعطوك.

ومدّ تشيلكاش يده إلى عبه فأخرج شيئاً قدّمه إلى جافريلو ورأى هذا الولد اوراقاً مالية مختلفة الأشكال والحجوم والألوان وخُيِّل إليه أنه يرى قوس قزح.

- كنت أظن أنك تتبجح تبجيحاً، وكم؟

- خمسمائة وأربعون روبلاً، أليس هذا عملاً؟

وتمتم جافريلو: - لا شك.. لا شك.

ونظر إلى المال... خمسمائة روبل... وأربعين روبلاً؟ نظرة جشعة وتشيلكاش يعيدها إلى عبّه، وقال وهو يزفر زفرة حاقدة:

- حبّذا لو كانت لي..

وقال غريسكا في حماسةٍ: ستحتفل بزفافك أيّها الأخ، وسأعطيك أجرك فلا تعجل.. سأعطيك أربعين روبلاً فهل أنت مسرور!؟ أتريدها الآن؟

- حقاً إني أريدها.

واضطرب الفتى ترصّداً وترّقباً. وفي قلبه رغبة جامحة تأكله أكلاً.

- خذ إيّها الأخ، أرجوك، أستحلفك إلا ما أخذتها. أنا لا أعرف أين أضع هذه الدراهم فخلّصني منها. خذ.

وناول تشيلكاش جافريلو أوراقاً من ذوات العشر، وقبض عليها القروي بيده التي ترتعش وترك المجاديف ثم دسّها في طيّات قميصه،

وغمز بعينيه وتنفس تنفساً عميقاً كأنما هو يشرب شراباً حاراً. وتشيلكاش ينظر إليه ضاحكاً ساخراً.

وعاد جافريلو إلى المجداف، يده في هياج واضطراب وعيناه مطرقتان، وأذناه وكتفاه ترتعش ارتعاشاً.

– ويلك. ما أكثر جشعك، وتفاهتك. إذن فهذه هي أخلاق الفلاحين.

وصرخ جافريلو وقد استبدت به الحماسة وهزّه الطرب:

– ما أعظم هذه القوة التي يهبها المال للناس.

وجعل يدمدم ويتمتم كلمات غامضة سريعة متابعاً عرض فكرته، ملقياً محاضرةً طويلة متقطّعة عن الفروق الهائلة بين حياة الفلاح والغني حالماً بعالم الشهرة والرفاهية والحريّة واللذة.

وأثار موقفه هذا دهشة تشيلكاش واهتمامه، فأصغى إليه متجهّم الوجه، وقد أفعمت عينيه أفكار كلّها أسرار، وعلى شفتيه ابتسامة وقال فجأة – وصلنا.

وحملت الموجة القارب فألقته على الرمل.

– فرغنا، لم يبقَ علينا إلا أن نجرّ القارب إلى مكان بعيد كيلا يحمله البحر وسيأتي صاحبه فيأخذه. والآن أيّها الأخ إلى اللقاء. إنَّ المدينة على بعد ثمانية فراسخ وأنت عائد إليها أليس كذلك؟

وتابع تشيلكاش ابتسامته في وداعة ورفق وكأنه يتأمّل عملاً لذيذاً لا يفهمه جافريلو، الذي كان لا يزال يخفي يده في عبّه ويداعب أوراقه المالية الصقيلة ويفركها فركاً.

- لست أريد الذهاب إلى المدينة.. بل أريد..

واختنق صوت جافريلو، فقد ثار في جوفه بركان من الرغبات والكلمات والاحساسات كلها تتدافع وتعتلج وتتصادم وأحرقته حمّىً باردةً راعدة، ورآه تشيلكاش فَصُعِقَ وقال:

- ماذا جرى لك؟

- لا شيء! لا شيء.

وتتابعت على وجه الفتى مواكب أحمرار وأصفرار، وكان ينبش الأرض بقدميه نبشاً ثم يمهدها تمهيداً كأنه يهمُّ أن يقفز على تشيلكاش أو كأنه صريع رغبة جامحة لا تتحقق.

وأقلق تشيلكاش هياج جافريلو، وتساءل متى تنتهي والأمُّ ستنتهي نوبته العصبية، وجافريلو يضحك ضحكاً جنونيّاً شاذاً كأنه ينتحب انتحاباً، ورأسه مطرق إلى الأرض، يخشى أن يرى تشيلكاش وجهه، وأذناه تحمرّان تارةً وتصفرّان أخرى. وقال تشيلكاش:

ويلك! ماذا بك؟ هل أنت لي عاشق منذ الساعة، فلا تريد أن تفارقني!؟ وهذه الحركات الصبيانيّة ما معناها؟ قل لي أيّها المضحك الصغير وإلا مضيت.

وصرخ جافريلو صرخة صاعقة:

- تذهب؟

واهتزّ الشاطئ كلّه لهذه الصرخة، واهتزت لها الصحراء ذات الرمال بل لقد اهتزّ لها تشيلكاش.

وأكبّ جافريلو فجأةً على قدمي تشيلكاش وجذبها جذبة عنيفة

أفقدت تشيلكاش توازنه فسقط على الأرض، ورفع يده يهمُّ أن يضرب. وصرف بأسنانه ثم كفَّ حين رأى نظرة جافريلو قلقة مستغيثة راجية.

– هب لي هذا المال يا أخي اسألك بالمسيح إلا ما وهبته لي، وما عساك تصنع به؟ إنه عمل ليلة واحدة... ليلةٍ واحدةٍ وكفى. أما أنا فسأنفق سنين طوالاً لأجمع مثله... هب لي هذا المال.. في سبيل الله.. في سبيل سلام روحك وطمأنينة نفسك.. سأقيم لك صلوات في ثلاث كنائس، أنك ستبدّد هذا المال هنا وهناك.. أما أنا فسوف أحفظه.. سأطمره في الأرض طمراً.. رحماك هب لي هذا المال الذي لا يفيدك.. إنك غير حريص عليه. وأنت الذي تستطيع أن تكون غنياً في ليلةٍ واحدة.. أحسن إليَّ هذا الإحسان مرةً واحدةً في حياتك.. إن الله قد غضب عليك وطردك من رحمته وستبقى هكذا ضالاً شريداً، ولن تعود أبداً إلى صراط الله المستقيم، أما أنا.. آه.. هب لي هذا المال...

جلس تشيلكاش محتبياً قلقاً وظلّ صامتاً وعيناه جاحظتان يراقب هذا الفلاح الذي يقضم نفسه قضماً تحت أقدامه، ويضع رأسه على ركبته ويردّد توسلاته وتضرعاته في صوت متهدّج متقطّع، وبقي هكذا لحظات ثم دفعه بيده وقفز واقفاً ومدّ يده إلى جيبه فأخرج كومة الأوراق الملوّنة وقذف بها في وجه جافريلو صائحاً.

– خذ إيها الكلب وكل.

كان يضطرب غضباً وحقداً وحناناً واحتقاراً في وجه هذا الجشع العبدي المنحطّ وأحسّ حين قذف بالمال أنه بطل من الأبطال، ولمعت في عينيه بارقة رائعة:

– أردت أن أكافئك مكافأةً كبرى. أشفقت عليك أمس.. تذكرت القرية وقلت: سأساعد هذا الفلاح. وترقبت أعمالك وجرأتك في طلب المال، أيّها الشحّاذ الحقير. إنك لجرثومة، أيمكن أن ينحطّ الإنسان إلى هذا الدرك من السفالة في طلب المال، وأن يعذب نفسه مثل هذا العذاب في السعي وراءه. إنك من أحفاد أولئك الأنذال، أولئك البخلاء الأبالسة الذين لا يعرفون للكرامة معنىً... والذين يبيعون أنفسهم وأهليهم لقاء كوبكات.

– آه يا صديقي جزاك الله خيراً، أنا الآن غني، غني أملك الألوف. أنا غني. لن أنساك أبداً يا صديقي العزيز، وسأحمل زوجتي وأطفالي على الدعاء لك والترحم عليك.

ونظر تشيلكاش إلى جافريلو يهتز طرباً ويقفز سروراً ويطمر الأوراق الماليّة في طيّات ثيابه، ورأى هذا السيل الدافق من الفرح وتأمّل هذا الوجه الذي غيره هيجان البخل الراضي.. ولذّ له أنه وهو اللصّ المتشرد الشقي لم ينحط ولن ينحطّ أبداً إلى هذا الدرك من السفالة والخنوع والتكالب والجشع، وأعجبه من نفسه ما عرفه فيها الآن من حريةٍ جريئةٍ وفرح بما أدرك فجعل يحاور جافريلو ويطيل حواره في هذا الشاطئ المقفر وصرخ الفلاح وهو يُشبع يد تشيلكاش لثماً وتقبيلاً وتشيلكاش يبتسم ويصمت ويُبْدِيّ أسنان ذئب. صرخ الفلاح مندفعاً في تيّار فرحه وسروره:

– سأخبرك بتلك الفكرة التي خطرت على بالي. عندما أخرجت لي طبقات المال المكدسة وأريتنيها لقد قلت في نفسي عندئذٍ: – «حبّذا لو قذفت به، بك، بضربةٍ صائبةٍ بالمجداف.. إذن يصبح الكنز لي، أما الجثة

فألقيها في البحر» الجثة جثتك، أفهمت؟ «ومن ذا الذي يزعجه غيابك؟» ولو وجدوك لما بحثوا عن أسباب موتك ولما فتشوا عن قاتليك. وعلامَ يبحثون ويفتشون؟ وهل أنت من الناس الذين ينتصر لهم الناس. إنك لا تنفع أحداً ولن يدافع عنك أحد ولن ينصرك أحد. أليس هذا صحيحاً؟

وزعق تشيلكاش وقبض على عنق جافريلو يخنقه:

- ابصق المال.

وحاول جافريلو أن يتملّص مرة أو مرتين فطوقه تشيلكاش بذراعه ثعباناً من نار ومزق ثيابه، وإذا بجافريلو مُلقى على الأرض، وعيناه مجنونتان يضرب الهواء بيديه ويتخبطَ تَخبُّطَ الأعمى الملذوع، وأمامه وقف تشيلكاش منتصب القامة، يكشّر عن أنيابه تكشيرةً مخيفةً ضاحكةً في مرارةٍ، ناقمةٍ تهزُّ شاربيه هزاً كأنه نسر مفترس أو كأنه حيوان من الأساطير.

إنه لم يعرف في حياته كلّها صدمة مثل هذه الصدمة تصيب سويداء قلبه بألم ولوعةٍ أنه لم يشعر في حياته كلها بمثل هذا الغضب الوحشي.

وسأل جافريلو: - والآن هل أنت سعيد؟

ثم أدار له ظهره ومضى إلى المدينة، وهو لا ينقطع عن الضحك، ولكنه لم يكد يمضي خطوة أو خطوتين حتى زحف وراءه جافريلو زحفاً كأنه هر، ثم أمسك بحجر من صوان مدور ورماه به وهو يصرخ: - خذ هذا.

وصرخ تشيلكاش صرخةً أليمةً، ولمس بيده نافوخه وترنّح ليسقط ولكنه التفت إلى جافريلو ثم تراخى على الأرض كأنه حمل ثقيل، ووجهه في الرمل وحرّك رجليه وحاول أن يرفع رأسه ودمدم في أنين كأنه أنين وتر

مشدود، وعند ذلك فر جافريلو مسرعاً راكضاً إلى غيمةٍ ممزقةٍ ترسل ظلّها على السهل الغارق في الضباب، وتوالت الأمواج على رمال الشاطئ تثب تارةً وتتقهقر أخرى تسوق معها الرمل ثم تعيده، وهطل المطر رذاذاً بادئ بدء ثم انهمر واتصل كأنه خيوط من ماء تهبط من السماء وتتداخل فتكون ستاراً كثيفاً يفصل بين السهل والبحر، وانقضى زمن طويل والمطر ما يزال ينحدر في ينابيع متدفقة فوق هذا الجسد الكبير الذي فقد الحياة فوق الرمال قرب الأمواج.

وطلع من خلال الضباب جافريلو يركض ركضاً فكأنه طير يطير، واقترب من تشيلكاش وجثم قربه وحاول أن يحوّل وجهه عن الرمل، وغطّى يده سائل حار أحمر فاختلج وتراجع مذعوراً مجنوناً ثم عاد يوشوش في أذن تشيلكاش على نغمات المطر المنهمر: – قم يا أخي –!.. قم يا أخي!

وصحا تشيلكاش من إغمائه وعاد إليه صوابه فدفع جافريلو وقال في صوت أجش أصم: – اذهب عني.. اذهب عني.

وتمتم جافريلو وهو يلثم يدي ضحيّته:

– عفوك عني.. عفوك عني.. لعن الله الشيطان.

– اذهب عني.. اذهب عني.

– سامحني.. اعف عن جريمتي يا أخي!

وبذل تشيلكاش كل ما في وسعه فجلس على الرمل، ووجهه أصفر مخيفة صفرته، ثم أغمض عينيه وكأنه لا يزال ناعساً ودمدم:

لقد فعلت فعلتك فاذهب عني واهرب مني..

وحاول أن يدفع بقدميه جافريلو البائس الهالك فلم يستطع وكاد

يقع فأمسك الفلاح كتفيه، وتقارب وجها الرجلين فأثارا الخوف والشفقة في آن واحد.

ويصق تشيلكاش في عينين مفتوحتين. هما عينا مساعده في هذه الليلة، ولم يحتج جافريلو ولم يثر بل مسح في حياء بكم قميصه بصقة صاحبه وجعل ينتحب:

- أفعل ما شئت بي، فلن أقول كلمة واحدة... ولكن سامحني واعف عني بحق المسيح.

وصرخ تشيلكاش في احتقار:

- أيها الأبله الذي ليس قادراً حتى على السرقة:

ومزّق قميصه تحت سترته ولم يتكلم وظلّ مكشّراً عن أنيابه ثم شرع يعصب رأسه بقميصه وسأل جافريلو: - هل أخذت المال؟

- كلا يا أخي أنا لم أمسّه. وأنا لا أريده إن فيه شقائي.

وسحب تشيلكاش من جيب ردائه كدسة من الأوراق، وأخذ ورقةً واحدةً منها ثم ألقى بسائرها إلى جافريلو وقال: - خذها واذهب.

- لن أمسّها. لا أستطيع. سامحني.

وزعق تشيلكاش وهو يقلب عينين هائلتين:

- قلت خذها لك.

ودمدم جافريلو متردّداً:

- سامحني أولاً وسآخذها بعد.

وسقط على قدمي تشيلكاش فوق الرمل الذي ما زال يهطل عليه المطر. وقال تشيلكاش في قوة وعزم:

- أنك كاذب وستأخذها على كل حال.

ثم قبض على شعر جافريلو ورفع رأسه في صعوبة وألصق الأوراق على وجهه وقال:

- خذ... خذ... فأنت لم تعمل مجاناً، ولا يخجلنك أنك حاولت قتل رجل، وهل يهمّ الناس رجل مثلي: إنهم لو علموا بك لأقبلوا يهنئونك على شجاعتك.. خذ.. خذ.. ولن يعرف أحد عملك العظيم الذي تستحق عليه التمجيد والإكرام.

وضحك تشيلكاش فكأنما أزاحت ضحكته عبئاً ثقيلاً عن كتفي جافريلو فأمسك بالمال وقال لصاحبه وهو يبكي: - ألا تعفو عني يا أخي؟.. ألا تسامحني..؟

وسخر تشيلكاش فردّد كلماته: - يا أخي.. يا أخي..

ثم وقف مترنحاً وقال:

- وعلامَ أعفو عنك؟ بل علامَ تطلب عفوي؟

اليوم دورك وغداً دوري...

وردّد جافريلو كئيباً هازاً رأسه: - آه يا أخي.. آه يا أخي..

وشدّ تشيلكاش قامته، وعلى ثغره ابتسامة غريبة، واحمرّت العصابة التي حول رأسه رويداً رويداً ثم أصبحت وكأنها عمامةٌ تركيةٌ حمراء.

وهل المطر وابلاً غدقاً، وتصاعدت من قلب البحر شكوى صمّاء ردّدتها الأمواج على الشاطئ، ولفّ الصمت الرجلين.

وأخيراً قال تشيلكاش ساخراً بارداً: إلى اللقاء.

وشدّ على ساقيه المترنحتين شدّاً، وأمسك بيديه يخشى أن يقع على الأرض، وناداه جافريلو راجياً متوسّلاً.

- يا أخي!.. عفوك عني.. سامحني.

- وعلامَ أعفو عنك؟

ومضى يمسك رأسه بيده اليسرى ويفتل شاربيه بيده اليمنى في رفقٍ وهوادةٍ، وبقي جافريلو في مكانه واقفاً لا يتحرك حتى توارى عن عينه شبح سيّد ليلته وراءَ المطر الذي ما يزال ينهمر في ستار كثيف لا يظهر من ورائه شيء، ويُغرِقُ الأرض بضباب كثيف قاتم كأنه الفولاذ.

وانتزع جافريلو قبّعته المبللة بالماء ورسم على صدره إشارة الصليب، ثم نظر إلى المال في يده، وزفرةً عميقةً فيها الخلاص والحرية، ورأى ثروته تحت قميصه، ومضى مسرعاً مهرولاً في قدم ثابتة في اتجاه يعاكس اتجاه تشيلكاش.

والبحر يصخب ويدوي ويسوق، لاكتساح الشاطئ الرملي، جيوشه وكتائبه من الأمواج فتتكسّر وتتحطّم في أردان من الزبد والرذاذ، والمطر يغسل البحر ويغسل الأرض في إلحاح وإصرار، والريح تزأر وتعصف، والطبيعة كلها ترتّل نشيداً رائعاً فيه شكوى وعويل وصراخ وزئير والغيوم تغمر الأمواج والبحر والأرض والسماء.

وأسرع ماء السماء وماء البحر فغسلا البقعة الحمراء التي تشير إلى المكان الذي سقط فيه تشيلكاش، ومسحا مواطئ خطواته، وخطوات صاحبه على الرمال.

ولم يحتفظ شيء من الأشياء، في هذا الشاطئ المقفر بذكرى فاجعة خاصة حدثت بين ذينك الرجلين.

رفيقي

- 1 -

لقيته في مرفأ أوديسا.. ظلّ يثير اهتمامي ثلاثة أيام كاملات بقامته الربعة القوية.. ووجهه القوقازي تطوّقه لحيه رشيقة.. أصبح كابوساً يلاحقني حيثما كنت، فأراه ساعات طوالاً واقفاً على الرصيف، يمصّ قبضة عصاه مصاً، ويحدق في حزن بماء المرفأ القذر، بعينين عسليتين. ويلقاني في اليوم القصير عشر مرات يمشي مشية المتفرج اللامبالي.

من هذا؟ وجرّبت التجسس عليه، وكأنه أراد أن يسخر بي فأكثر من ظهوره أمامي، وسرعان ما عرفته من بعيد ببذلته المرّبعة، وقبّعته الرخوة، ومشيته المترنّحة، وبنظراته ذات التعبير الغامض المتراخي.

كان أمراً جّد غريب في هذا المرفأ بين صفير المراكب ودوي القاطرات وجرجرة السلاسل وضوضاء العمال، بين كل هذه الأصوات الصاخبة الحارة التي تضغط عليك من كل جانب، وتُنْضِبُ عقلك وتهدُّ أعصابك.

الناس جميعاً هنا في هذا الميناء عبيد لهذه اللآلات الجبارة تقتضيهم انتباهاً لا يفتر، وجهداً لا ينقطع، ها هم أولئك يتزاحمون حول المراكب والقاطرات يملؤونها أو يفرغونها وكلّهم متعبون، منهمكون، يركضون ويصرخون في

ضباب من الغبار ويتصبّبون عرقاً.. أما هو فكان في قلب هذا العمل المحموم يتشرّد في هدوء وينثر قلقه القاتل في تعبير غريب من عدم اكتراث كامل..

وأخيراً، وبعد أربعة أيام، في ساعة الغداء، وقعت عليه وقد قررت أن أعرفه، فجلست قريباً منه، ومعي بطبخة وخبز، وشرعت آكل وأنظر إليه وأبحث عن أحسن وسيلة تتيح لي أن أتحدث إليه.

كان واقفاً وقد أسند ظهره إلى حزم الشاي، وجال بنظراته القلقة فيما حوليه، وعبث بأصابعه على عصاه، كأنه يلعب على قصبة.

غير سهل على متشرد مثلي، يغطيه ثوب من غبار الفحم ويحمل على ظهره شارة الحمّالين، أن يتحدث إلى هذا الرجل الطرير. ولكنني، وبالدهشتي الصاعقة لاحظت أنه يغرز في نظرات تبرق فيها شراهة جامحة شريرة بهيمية، وأدركت أن هذا الرجل الذي أدرسه جائع وأجلت نظرات سريعة حوله ثم سألته في رفق:

- أتريد أن تأكل؟

وانتفض انتفاضة الخائف، وكشّر تكشيرة الشره الجائع فبدت أسنان طويلة منضدة خُيّل إلي أنها مائة سن أو تزيد، وأجال نظرات حذرة فلم يرَ أحداً يلحظنا، مددت إليه نصف البطيخة وقطعة من الخبز فانتفض عليهما ثم توارى وراء أكداس البضاعة يرفع رأسه حيناً بعد حين، وقد قذف بقبعته إلى مؤخرة رأسه فبدت جبهته سمراء بللها العرق، ولمعت على صفحة وجهه ابتسامة عريضة وغمز بعينه، وهو أثناء ذلك كله لا يفتر دقيقة واحدة عن التهام الطعام، وأشرت إليه أن انتظرني ثم رحت إلى السوق فاشتريت لحماً حملته إليه وجلست فوق الأكياس لأحجبه عن عيون

الناس، وظلّ يفترس طعامه افتراساً كما يفترس العقاب قطعة من اللحم يخشى أن تُنتزَعُ منه، ورأيته وهو يأكل فكرهت منظره وأعرضت عنه بوجهي، وسمعت بعد ذلك صوتاً يقول لي: شكراً... شكراً...

ووضع كفّه على كتفي ثم أمسك بيدي فهزها فآلمها وكاد يسحقها.

لم تمض دقائق خمس حتى شرع يقص عليّ قصته:

هو أمير كرجي يدعى شاركو ينادز، وابن ملاك كبير من كوتايس، كان موظفاً في محطةٍ من محطات القوقاز يسكن هو وصديقه في بيت مشترك، وفرّ هذا الصديق فجأةً يحمل مال الأمير شاركو ومقتنياته. وجعل شاركو يبحث عنه ثم عَلِمَ أنه في باطوم فهرع إليها ولم يكد يصل حتى قيل له أنه سافر إلى أوديسا وعند ذلك أخذ جواز سفر صديق له حلاق يدعى (فانوسفانيكس) على الرغم من اختلاف ملامحهما، وسافر إلى أوديسا فشكا إلى الشرطة أمره ووعدوه بإلقاء القبض على المجرم وها هو ذا منذ أسبوعين ينتظر، ولا يملك شروى نقير، ولم يأكل منذ أربعة أيام.

أصغيت إلى قصته فبدت لي صادقةً، وكانت الشتائم تتخللها حيناً بعد حين، وأشفقت عليه، ووثقت به. كان فتى في التاسعة عشرة من عمره، توحي إليك سذاجته أنه أحدث سناً وأقل عمراً وكان يلح في حديثه على ما أبدى من عطف وحدب على زميله الخائن الذي سرق له ذخائره ونفائسه، وكان غضبه عميقاً ولاسيما حين ذكر أن أباه، وهو ذلك الرجل المخيف، سيذبحه ذبحاً إذا لم يجد ما فقده.

وقلت في نفسي: إن هذا الشاب لابد ضائع في هذه المدينة الكبيرة إن لم يحمه أحد، وما كنت جاهلاً بما تتمتع به عشيرة الحفاة العراة من إمكانيات

ضئيلة وتنبأت أن الأمير شاركو لابد مندمج في جيشهم الذي يستحق كل تقدير ولا يلقى أيّ تقدير.

وخطر لي أن أساعده، ولم أكن أستطيع، وأجري قليل أن أدفع له ثمن تذكرة في القطار إلى باطوم، وهرعت إلى دوائر كثيرة أطلب له منها تذكرة مجانية، وبذلت كل ما أملك من قوّة لأبيّنَ ضرورة هذه النجدة ولكني كنت أُقابَلُ برفض ليس أقل قوة من حماستي. عرضت عليه عندئذ أن أرافقه إلى رئيس الشرطة ليطلب تذكرة فاضطرب ورفض: لم يدفع أجر الفندق الذي نام فيه، ضرب رجلاً ثم هرب، ولن تهتمّ الشرطة على ما تهرب من دفعه، ولا على ما وزع من ضرباته هنا وهناك، ثم أنه فوق ذلك لا يتذكر تماماً هل ضرب رجلاً واحداً أو أثنين أو أربعة.

وتعقد الموقف، فقررت أن أعمل لأجمع له ثمن التذكرة إلى باطوم ولم يكن هذا القرار ويا للأسف قراراً قابلاً للتنفيذ، بل ربما كان أمراً مستحيلاً، فشاركو كان يلتهم طعام رجال ثلاثة لينجو من صيامه الطويل. وفي تلك الآونة اكتسحت الموانئ موجة من المشردين الذين يموتون جوعاً فهبطت الأجور، وكنا نأكل ستين كوبكا من أجرتي البالغة ثمانين.

وكنت قد قررت قبل معرفتي بالأمير أن أسافر إلى شبه جزيرة القرم، وإلا أظلُّ ثاوياً في أوديسا إلى الأبد، فعرضت على الأمير شاركو أن يرافقني إليها سيراً على الأقدام فإذا وجدت هناك من يوصله إلى تفليس تفرقنا وإلا رافقته أنا بنفسي إليها.

ونظر الأمير إلى تعليه الناعمتين، وقبعته وسراويله، مسح بيده سترته، وفكر لحظة ثم تنهد لحظات ثم وافق.

وهكذا سرنا من أوديسا إلى تفليس.

- 2 -

بلغنا (خرسون) وقد خبرت زميلي خبراً نهائياً: ساذج جاهل لم يتطور عقله، سعيد إذا شبع، شقي إذا جاع، كان بهيمة غير ذات خبث ولا شر.

وحدثني في رحلتنا عن القفقاس، وعن حياة الإقطاعيين الجورجيين، وعن ألعابهم، وعلاقاتهم بالفلاحين، ووجدت في قصصه شيئاً من المتعة وشيئاً من عظمة ولكن شخصية زميلي بدت لي فيها غير ذات نبل.

وهذه حكاية من حكاياته:

أقام أمير غني حفلة كبرى لأصدقائه وشربوا حتى ثملوا وأكلوا كل ما على المائدة، ثم مضى الأمير بضيوفه إلى مرابط الخيل فأسرجت وامتطاها الضيوف وركب الأمير أجودها ومضى يعدو في السهل وأُعْجِبَ الضيوف بجمال الحصان وقوته وسرعته، ومضى الأمير مرّةً أخرى وفجأةً بدا في السهل فلاح يمتطي صهوة حصان أبيض وجارى حصان الأمير فسبقه، وجعل الفلاح يضحك في كبرياء، وقطب الأمير المهان حاجبيه ثم شرع يفركهما، وأشار إلى الفلاح أن يقترب فاقترب وما كاد يصل إليه حتى استلّ سيفه وضرب عنقه، ثم سدد مسدسه إلى أذن الحصان فقتله ومضى فانبأ الحكومة بعمله السامي فحكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة.

وأبدى شاركو عطفه على الأمير.

وبذلت كل ما استطيع لأبيّن له أن هذا المخلوق لا يستحقّ العطف، فكان يجيبني كل مرّة عاتباً لائماً.

– هنالك قليل من الأمراء وكثير من الفلاحين، ولا يجوز أن يُحَكَّمَ على أمير من أجل فلاح، ومن هو الفلاح؟ وهو ما ترى – وأشار شاركو إلى كومة من التراب – أما الأمير فنجم من نجّوم السماء.

وتجادلنا فغضب، وكشّر في غضبه عن أنياب ذئب وبدا على وجهه تعبير حاد دقيق ثم صرخ:

– اخرس يا مكسيم! فأنت لا تعرف حياة الناس في القفقاس.

وبذلت كل مالي من حجج وبراهين فلم انتصر على سذاجته. وكان كل ما يبدو واضحاً جلياً عندي يبدو مضحكاً سخيفاً عنده. وظل عقله في حرز حريز من هجوم منطقي. وعندما طرحته أرضاً بعد كثير من الجهد والعناء وأثبت له إثباتاً رائعاً ما في أفكاري من سمو وحق، ولم يستسلم بل قال:

اذهب إلى القفقاس وعش هناك وستفهم عند ذلك أن ما قلت هو الحق، وأن الناس يقومون جميعاً بهذا العمل لأنه هو الحق، ويعتقدون أنه هو الحق وكيف تريد مني أن أطمئنَّ إليك وأنت وحدك الذي تدّعي «أن هذا باطل»؟

وسكت، فلم أتكلم، لقد أيقنت أن معارضة هذا الرجل الذي يعتقد أن حياتنا الحاضرة قائمة على مبدأ الحق والعدل، بالكلام أمر لا يجدي ولا يفيد، وأن معارضته يجب أن تكون بحقائق الحياة ووقائعها، وظنَّ أن صمتي استسلام وقبول فزها وبطر وتكبر بهذا النصر، ودفعه اطمئنانه إلى معرفته المطلقة للحياة وصمتي المقصود إلى الاغراق في قصصه حياة الملاكين في القفقاس وما فيها من عظمة فاجعة، وبطش وشذوذ، وأثارت

هذه الحكايات اهتمامي وفضولي وشعرت بالثورة على ما في هؤلاء الناس من وحشّية واحترام عبدي للمال والقوة، وفقد تام لقواعد الخلق الإنساني.

وسألت شاركو مرةً: هل يعرف شريعة المسيح فأجاب وهو يهز كتفيه:

- وكيف لا؟!

وعندما أخبرته تبيّن لي أن عمله بالدين يُلَخّصُ فيما يلي:

«هناك واحد يدعى المسيح ثار على الشريعة اليهودية، ولذلك صلبه اليهود، ولكنه لم يمت على الصليب، لأنه إله، بل صعد إلى السماء وأنزل للناس شرائع أخرى...».

وسألته عن هذه الشرائع فنظر إليّ في دهشةٍ وسخريةٍ وقال:

- ألست مسيحياً؟ وأنا مسيحي. والعالم كلّه مسيحي. فلماذا تسألني ما دمت ترى بأمِّ عينيك كيف يعيش الناس... هذه هي المسيحية.

وغضب وحاولت أن أقصّ عليه حياة المسيح، فاهتم بادئ بدء بعض اهتمام، ثم فقد اهتمامه ثم جعل يتثاءب. وعلمت أن لا سبيل إلى التأثير في قلبه فحاولت أن أثير عقلَه مرة أخرى وبينت له ما في الرحمة والعلم والعدل من خير فقال في غير اكتراث:

- القويُّ يسنُّ الشرائع، فلا تعلمه إياها، وهو قادر على الاهتداء إلى طريقه حتى إذا كان أعمى.

ميزة شاركو كانت في إخلاصه لمبادئه فاحترمته على الرغم من طيشه وقسوته، وكنت أحس حيناً بعد حين بنار من الكره تشتعل في صدري لتحرقه، ومع ذلك فلم أقطع حبل الأمل في بلوغ نقطة مشتركة نتلاقى عندها ونتفاهم.

وولجت أبواباً من الحديث أكثر سهولة ويسراً وتقرّبت إليه وعرف ما أبذل من جهد فلم يفهم إلا أني اعترفت بتفوقه ومقدرته فزادت لهجته قحة وتهجماً، وكم كان عسيراً عليّ أن أجد أدلتي وبراهيني تتساقط كالرماد في وجه هذا الحائط من الصوّان الذي أقامته نظرة هذا الرجل إلى الحياة. واجتزنا مدينة (بيريكوب) واقتربنا من جبال القرم ورأيناها في الأفق زرقاء كأنها عصابات من غيوم ناعمة وأعجبت بها من بعيد وحلمت بشواطئ القرم.

وكان الأمير يغني أغانيه الكرجية متجهماً، وأنفقنا كل ما نملك من مال ولم نستطع تعويضه وأسرعنا نحو (تيودوسي) التي بدأت فيها أعمال بناء مرفأ حديث، وأكد لي الأمير أنه هو نفسه سيعمل لندفع أجرة السفر بحراً إلى باطوم، وفي باطوم أصدقاءٌ له كثيرون وما أسهل أن يجد لي عملاً حسناً حارساً أو حاجباً. وربت على كتفي كأنما هو حام من حماتي وقال وهو يدير لسانه:

- سأضمن لك مكاناً طيباً وحياةً رغيدةً، تسي تسي، وستشرب من الخمر ما طاب لك أن تشرب، وستأكل من الخراف ما استطعت أن تأكل. وسأزوّجك امرأة كرجية سمينة، تسي تسي. وستطبخ لك مآكل شهية وستلد لك أولاداً كثاراً تسي تسي.

عجبت بادئ ذي بدء من هذه الـ «تسي تسي» ثم جعلت تثير في نفسي بعض الاشمئزاز والكره، ثم جعلت تثير بي غضباً شديداً أسود، فاسم الفعل هذا يستعمل في روسيا لدعوة الخنازير، أما في القفقاس فهو يعبر عن الإعجاب والأسف والفرح والألم.

- 3 -

وأخيراً هنا نحن أولئك في القرم. مررنا بسمفيروبول، إلى يالطا. لقد ألقاني جمال هذا الركن الفتّان من الأرض، تحيط به الأمواج من كل جانب في ذهول صامت أخرس. أما الأمير فكان يتنهّد ويتذمّر ويتطلّع حواليه غاضباً باحثاً عمّا يملأ معدته من فراغ في الحشائش والأثمار المجهولة، فلا تكفيه ولا تسدُّ رمقه فيقول في جفاء:

– وإذا هدّ الجوع جسدي وأقعدني أستطيع السير في طريقي. قل لي؟

ولن نستطع تدبير عمل، ولم نكن نملك شروى نقير، وعجزنا عن شراء الخبز وجعلنا من أثمار البرية وآمال القلوب غذائنا الوحيد.

وبدأ الأمير ينعي عليّ كسلي وخمولي، وجعلت لا أطيقه وكان يشيرني بما يقصّه عليَّ من شراهة وجشع،: أكل يوماً حملاً صغيراً وشرب ثلاث زجاجات من الخمر، واحتسى بعد ساعتين ثلاثة صحون وأكل قدراً من خروف بأرز، وقطعة كبيرة من اللحم، ولم يدخل في حسابه عدداً كبيراً من أطباق القفقاس الملونة، ولا ما كان هناك من شراب ومدام. وظل أياماً كاملةً يحدثني عن معلوماته في طهي الطعام وعمّا يحب من ألوانه، وهو يلعب بلسانه، ويسيل لعابه، وتلمع عيناه ويصرف بأسنانه، ثم يبلع ريقه

الذي يبلل شفتي هذا الخطيب المصقع، فأشعر عند ذلك بكره شديد لا أكاد أستطيع إخفاءه.

واستأجرني ببستاني بالقرب من يالطا لتقليم الأشجار وأعطاني سلفاً أجرتي فاشتريت بها كلها لحماً وخبزاً، وجلسنا للطعام ولكن البستاني استدعاني فتركت الطعام في حراسة شاركو الذي رفض العمل بحجة أنه مصاب بصداع، وذهبت لأشتغل وعدت بعد ساعة فإذا بي أتبيّن أن شاركو لم يكن كاذباً فيما زعم من شراهة: لم تبق كسرة من خبز إلا التهمها، ولا فلذة من لحم إلا ازدردها، ولم يكن ليصنع هذا الصنيع صديق طيب شريف، ومع ذلك فلم ألمه ولم أعتب عليه وأثبتت لي الحوادث اللاحقة أني كنت في ذلك على ضلال مبين.

ورأى شاركو صمتي فاستثمره، وجرت الأمور منذ اليوم مجرى مخالفاً لكل حق، أما أنا فأشتغل، وأما هو فيستريح ويأكل وينام ويهزأ بي.

لم أكن تلميذاً من تلامذة تولستوي، ورأيت أمراً حقيراً شائناً أن أجد هذا العملاق القوي يتمدد في بقعة ذات ظل محدود وماء مسكوب وينظر إليّ نظرة جائعة شرهة وقد جئت إليه منهوك القوى يهدني العمل والتعب. ولكن الذي بدا لي أكثر حقارةً وأشدّ انحطاطاً هو أن أرى أنه يهزأ بي ويسخر مني لأني أعمل وأشتغل، بينما هو يستجدي ويشحذ، ولأني في نظره لست إلا حطبةً لا تصلح للوقود. وأظهر لي حين بدأ في التسول شيئاً من تطهر وتعفف، ولكنه ما لبث أن حذق الصنعة واتخذ لها أسبابها وعرف أصولها، فإذا اقتربنا من قرية تترية اعتمد على عصاه وجرّ ساقيه جراً،

وادعى أنه جريح مسكين لأن التتر لا يتصدّقون على شاب قوي، وأنكرت عليه عمله هذا إنكارا، وأجهدت نفسي لأبيّن ما فيه من دناءةٍ وقذارةٍ فكان يضحك ويجيبني في بساطةٍ:

- أنا لا أعرف العمل!

وتصدّق عليه الناس صدقاتٍ تافهاتٍ وفي خلال ذلك أُصِبْتُ بمرض وبدت لي الرحلة أكثر مشقّة وادعى إلى الجهد يوميا بعد يوم ورأيت علاقتي بشاركو علاقة قاسية لا تُطَاق وجعل يعنف بي في طلب عنايتي به وحرصي عليه.

- ألست أنت دليلي؟ إذن فقدني ودلني. محال عليّ أن أقطع هذه المسافات البعيدة الشاسعة ولم أتعوّد مثلها ولربما قتلتني.

أيسرّك أن تؤلمني؟ أتريد أن أموت؟ وماذا يحدث إذا مت؟ ستبكي أمي وسيبكي ابي وستسيل أنهار من الدموع...

وأصغيت إليه وقد تذرعت بالصبر وتغلغلت في رأسي فكرةً غريبةً رويداً رويداً هي التي وهبت لي القدرة على احتمال كل هذا. كنت أجلس أحياناً إلى جانبه وهو نائم وأتأمّل في سكون وجهه الهادئ وأقول ثم أقول كأني أدركت حدساً جديداً: (يا رفيقي.. يا رفيقي..)

لعل شاركو حين يلحّ في طلب معونتي وعنايتي في مثل هذه السيطرة المطلقة إنما يطلب في بساطة حق الصديق على الصديق. تلك هي الفكرة الغامضة التي نمت في نفسي وترعرت. كانت طلباته تنم على قوة جعلتني له عبداً مطيعاً. كنت أدرسه دراسةً دقيقةً واترقب كل ما في وجهه من خلجات وأحاول أن أعرف الحدّ الذي سيقف عنده في بسط نفوذه على

زجل غريب أما هو فكان هادئا جمَّ الهدوء يغني وينام ويهزأ بي ما طاب له أن يهزأ وكنّا نفترق يوماً أو يومين فيمضي كل منّا في طريق ثم نلتقي فأعطيه مؤونته وزاده من الخبز والمال إذا كان في يدي مال ثم أدله على المكان الذي يجب أن نلتقي فيه فإذا التقينا تحوّل القلق الغاضب عند فراقنا إلى فرح منتصر فيقول لي وهو ينفجر ضاحكا:

- حسبت أنك ستمضي وحدك وتتركني هنا هه.. هه.. هه..

وأعطيه ما يأكل وأحدثه عن القرية الجميلة التي أزورها. وأنشدته الأبيات التي وصف بها بوشكين قرية باكتشياري فكأني نفخت في رماد بارد.

- آه.. شعر.. كلا يا صاحبي لو كانت أغنية لفهمت أما الشعر فلا...

عرفت رجلاً كرجيا يدعى فاتو كيجيافا يعرف كيف يغني ويا لغنائه ما أحلاه.. آه.. آه.. إذا غنّى خُيِّلَ إليك أن خنجراً يدور في حنجرته... ولقد حز حنجرة صاحب فندق فنُفِيَ إلى سيبيريا. كنت كلّما عدت إليه زدت في نظره انحطاطاً وتدهوراً، والغريب أنه لم يكتم عني حقيقة شعوره.

لم تكن أعمالنا ناجحةً ولا مزدهرةً، وما كنت أصل إلى جمع روبل واحد أو روبل ونصف خلال أسبوع كامل إلا بشقّ النفس، وهو مبلغ قليل على اثنين أما الصدقات التي كان شاركو يجمعها فلم تجدنا قط، ذلك أن له معدة أو بالوعة تبلع كل شيء: العنب والبطيخ والسمك المملّح والخبز والفاكهة الجافة. وهذه البالوعة تزداد مع الزمن سعة وكبراً ويصبح ملؤها أشدّ صعوبة يوماً بعد يوم.

وألحّ شاركو عليّ لمغادرة القرم في أسرع وقت، فقد داهمنا الخريف والطريق ما تزال بعيدةً ووافقته على رأيه بعد أن درست هذه المنطقة فسرنا إلى (تيودوسي) آملين جمع مال لم نجمعه فعدنا إلى أكل أثمار البساتين وآمال المستقبل.

ما أشدَّ مضاضةُ هذا المستقبل. إن انتظار الإنسان له انتظاراً طويلاً يُفقدهُ جماله عندما يصل إليه ويحققه.

ووقفنا على بعد 20 ميلاً من (ابوشتا) لنقضي ليلتنا تلك، وحملت شاركو على السير متّبعاً الشاطئ الرملي، وكان هذا الطريق جديراً بإطالة طريقنا. ولكنني كنت حريصاً على تنسّم هواء البحر، وأشعلنا ناراً تمدّدنا حولها، كانت الليلة رائقةً، والبحر الأخضر ينكسر على الصخور من تحتنا، وساد فوق رؤوسنا صمت السماء الزرقاء، وتمتمت حوالينا الأقصاب والأشجار المعطّرة في هوادة ورفق، وطلع القمر وألقت أوراق «الشنار» المثلّمة ظلالها على الأحجار وهنالك عصفور يلقي بأعلى صوت أغنية مرتلة مؤثّرة تضيع ألحانها الفضيّة في الفضاء على أصوات الأمواج الهادئة المهدهدة، فإذا صمت الطير سمعت نأمة حادة ترسلها حشرة. والنار تشتعل شعلة فرحة كأنها باقة كبيرة من الأزهار فيها الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء وتلقي حولنا ظلالاً راقصةً خفيفةً كأنها توائم بتموجاتها ما يلقيه القمر من ظلال، وتنوّعت ألوان الهمسات والأصوات في الليل، ومد البحر سعته الصحراوية إلى الأفق البعيد، والسماء صافية ليس فيها ضباب ولا غيم، وأحسست أني أجلس على تخوم الأرض وأتأمّل اللانهاية... وسكب جمال الليل الصافي خمرته

في نفسي، وفنيت في انسجام كامل من الألوان والأنغام والطيوب وأفعم روحي إدراك غامض إلهي، وازداد فرحي بالحياة حتى خُيِّلَ إليّ أن قلبي كفّ عن الخفقان.

وفجأة انفجر شاركو ضاحكاً:

- هه.. هه.. هه.. ما أشدّ غباوة هذا الرأس. لكأنه رأس خروف هه.. هه.. هه..

وانتفضتُ كأني لمست صاعقة انقضت على رأسي، بل لقد كانت انتفاضتي أشدّ عنفاً وهولاً. وقد يكون هذا الموقف مضحكاً ولكنه كذلك مخجل. كان شاركو يضحك ويضحك حتى بكى ضحكاً. وكدت أنا أبكي، ولكن لأمر آخر. وشعرت أن في حلقي صخرة واقفة لا تتحرك ولا تريم، وأنا لا أستطيع أن أتكلّم وأكتفي بالنظر إليه نظرةً جنونيةً زادت في ضحكته وهاجته من قهقهته، فتدحرج على الأرض ممكساً بطنه يحاذر أن ينفجر ولم أستطع أن استيقظ من كابوس هذه الإهانة، هذه الإهانة المخيفة التي أودّ أن يفهمها بعض قرّائي، لأنهم ذاقوا مثلها من قبل، ويذوقونها الآن من جديد حين أتحدث عنها.

وزعقت غاضباً هه.. هه..

فخاف وارتجف ولكنه لم يتمالك نفسه فقد استبدّ به جنون الضحك فنفخ خديه وأدار عينيه وعاد يقهقه، وعندئذ قمت وسرت.

مشيت زمناً طويلاً لا أفكر ولا أعي، أتجرع سمّ الوحدة والإهانة. كنت منذ قليل أضم جسد الطبيعة في أحضاني وأسرّ في أذنيه لحن الهوى والحب، هذا الحب الذي يحسّ به كل إنسان إذا كان شاعراً.. ولو قليلاً..

ولكن ها هي ذي الطبيعة متمثلة في شخص شاركو تنفجر هازئة بعاطفتي الجياشة وحبي السامي. وهممت أن أوغل في اتهامي وحقدي على الطبيعة وعلى شاركو وعلى نظام الكون كله لو لم أسمع من ورائي وقع أقدام سريعة.

– لا تغضب. لم أعرف أنك تصلي، فأنا لم أصل أبداً.. ورنّت في صوته نبرة طفل مذنب مرتبك، وكان عسيراً عليّ، على الرغم من هيجاني وانفعالي إلا أدرك ما يغمر وجهه الحيي من قلق واضطراب.

– أعاهدك عهداً قاطعاً ألا أزعجك أبداً.

وأشار برأسه إشارةً سلبيةً وقال: – أرى أنك طيب.. تشتغل ولا تطلب مني أن أشتغل... فسألت نفسي: وعلام ذلك؟ لقد فكّرت حقاً أنك حيوان كالخروف مثلاً.

هذا كل ما لديه من عزاءٍ واعتذار يفرغه. وطبيعي أن أعفو عنه بعد هذا العزاء وذلك الإعتذار عن ذنوبه الماضيات بل وعن ذنوبه القادمات.

ومضت نصف ساعة فنام نوماً عميقاً إلى جانبي وظللت أنظر إليه: إن أقوى الرجال يظهر حين ينام ضعيفاً مستضعفاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولذلك فقد اشفقت على شاركو النائم منفرجة شفتاه الغليظتان، مرتفعاً حاجباه في خجل طفل ودهشة رضيع، وهدأ تنفّسه وانتظم وتمتم كلمات كرجية وابتهالات حارة... وهيمن على الوجود من حولنا سكون شامل في أحشائه سر مكتوم: سكون مطلق.. هدوء رهيب.. صمت كامل.. هذا الذي لو طال لأصاب بالجنون الإنسان.

أما الأمواج فلا تكاد تـصل تمتمهـا إلينـا، ونحـن في شـعب تجنحـه أسيجة شائكة كأنها شدق غول متحجّر.

وتأملت شاركو نائم وقلت:

– هذا هو رفيقي.. استطيع أن أتركه وأمضي.. ولكنني لا أستطيع أن أتخلّص منه.. هو رفيق حياتي.. رفيقي إلى قبري..

- 4 -

خيبت (تيودوس) آمالنا، فقد وجدنا فيها عند وصولنا إليها زهاء أربعمائة متشرّد كلهم يطلبون عملاً مثلنا، وكلهم يضطرون إلى القناعة بالنظر إلى بناء الرصيف، كأن فيهم أتراك ويونان وقفقاسيون وجماعات من سمولنسك وبولتافا، ومتشردون آخرون. وكانت المدينة كلها غاصّة بأفواج من الرحل وبأسراب من الناس المنهوكين، وبأكوام من الموتى جوعاً وسعباً، ومكتظة بالحفاة من سكان بحر آزوف وشواطئ القرم يعجون فيها عجيجاً كأنهم الذباب.

ورأوا أنا من الموتى جوعاً، فحاولوا أن ينالوا منّا أقصى ما يستطيعون من فائدة، فسلبوا معطف شاركو، وكنت قد اشتريته له، وقطعوا شراك كيسي ولكنا بعد جدل طويل استعدنا هذه التحف كلها، وتبيَّن لهؤلاء الحفاة أن بيننا وبينهم اشتراكاً في التفكير ووحدة في المشاعر. والحق أن المتشردين أشراف جداً، أشراف في مجتمعهم الخاص، وأشرار جد أشرار في دولتهم.

وعندما أقتنعنا أن ليس في هذه المدينة عمل نقوم به وأن بناة المرفأ يستطيعون الإستغناء عن جهودنا في إقامة السدود شعرنا بالإهانة تلحقنا وسافرنا إلى (كرش).

ووفى صديقي بوعده فلم يهزأ بي أبداً، ولكنه استمر في شكواه من الجوع.

وظلّ يخيفني وهو يعدّد لي ما يريد ابتلاعه من المأكولات وأكثر من ذلك أنه كان إذا رأى أحداً يأكل صكّ أسنانه كأنه ذئب ولم يكتف بذلك بل جعل يفكر في النساء، وابتدأ بزفرات يصعدها أسى وحسرة، ثم ازداد عدد هذه الزفرات ورافقتها ابتسامات شرقيّة حارة، ثم جعل لا يمرّ بامرأة مهما كان عمرها ومظهرها إلا غمرني بآراء عاهرة مفعمة بفلسفة عملية تصل بعضو من أعضاء جسده، وكان فارساً في قضايا النساء عارفاً لها معرفة عميقة، ناظراً إليها نظرة معيّنة طالما أثارتني فبصقت اشمئزازاً ونفوراً. وحاولت ذات يوم أن أبيّن له أن المرأة إنسانة مثلي ومثله وأنها يجب أن نعتبرها نداً لنا في كل ما لها بنا من علاقات وأمور. ورأيت بعد حين أن كلامي هذا لم يهن كرامته فحسب بل أنه كان احتقاراً له كاد يخرج به إلى الغضب، وصمّمت ألا أرهقه بملاحظاتي حتى ذلك اليوم الذي سيكون فيه صاحبي شاركو ممتلئاً غير جائع.

سرنا إلى كرش، وقد تركنا الشاطئ وأوغلنا في السهل وما في جرابنا غير قرص واحد من الشعير اشتريناه بآخر درهم من دراهمنا، وكان من عقبى ذلك أننا لم نجد عملاً لنا في كرش بل لم نكن قادرين على العمل ولا على الوقوف على أقدامنا إذا وجدناه.

ولم ينتج تسوّل شاركو في القرى شيئاً، فحيثما سرنا كنا نسمع هذا الجواب الوحيد المؤلم: (عندنا أكوام من أمثالكم). وكان ذلك حقاً، فتلك السنة المخيفة شهدت عدداً لا يحصى من الناس يسعون وراء كسرة من

الخبز: كانوا يسيون على أقدامهم عصابات تتألف من ثلاثة أشخاص إلى عشرين شخصاً، وأكثر من عشرين كانوا يسيرون وهم يحملون أطفالهم حملاً أو يجرونهم جراً، والأطفال صفر الوجوه، ذبل الشفاه، خمص البطون يُخَيَّلُ إليك أن هذا السائل الذي يجري تحت جلودهم الزرق ليس ما يسميه الناس دماً أحمر وإنما هو سائل متعفّن متفسخ، وإن عظامهم أعشاب يابسة تبرز من وراء جلودهم المتقلّصة التي تتشعب فيها الدوالي فيؤذي منظرها من يراها حتى أنه ليشعر أن في قلبه حزناً عميقاً مخيفاً يخنقه فهو لا يهدأ ولا يستريح.

وهؤلاء الأطفال العراة الذين أنهكم الطريق لم تبق فيهم قوة تتيح لهم أن يبكوا أو يصرخوا. كانوا يجيلون حواليهم أنظاراً انطفأت فيها الحياة. وكأن هذه النظرات في عيون الأطفال تسأل آباءهم هذا السؤال:

– بأيّ حق جئتم بنا إلى هذا العالم؟

ولربّما مرّت حيناً بعد حين زحافة يجرّها حصان هزيل تقوده امرأة عجوز كأنها هيكل عظمي تتناثر حولها رؤوس الأطفال وهم يتطلّعون في حزن وأسى إلى حقول الناس وبساتين الناس. والحصان الأعجف يجرّ نفسه جراً ويحني رأسه وكأنه هو الذي يستدر الرحمة ويستجدي الشفقة. ويمشي الكبار من النساء والرجال حول الزحافة ووراءها. ورؤوسهم مطرقة، وأذرعهم متدلية كأنها حبال، وعيونهم مظلمة لم تستطع الحمّى نفسها أن توقد فيها بارقة، فظلّت صفحة مكتوبة بألم قاتل لا يوصف. ومشت القوافل مشياً وئيداً صامتاً في أراضي الناس، فكان هؤلاء البؤساء الذين ما زالوا أحياء، والذين اجتثّهم الجوع من الأرض، وقصمهم الألم

عن الحياة، كأنهم يخشون أن يعكّروا على الأحياء الأغنياء، الذين هرعوا إليهم متلجئين، صفو هدوئهم وراحة بالهم.

كنا نلتقي بهذه القوافل من الجنائز التي ليس فيها موتى، فيسألنا سائلها في رفق وحياء:

– يا صديقي! هل القرية بعيدة؟

فإذا أجبناه انتزع جوابنا آهة من قلبه ثم نظر إلينا عابرين.

وكم كره صاحبي منظر هؤلاء الناس لأمر واحد هو أنهم يزاحمونه في التسوّل ويفسدون عليه خططه ومشروعاته. ولم يكن ليستطيع وقد احتفظ ببقايا حيويّته وعضويّته السابقة، على الرغم من وعث الطريق وعنف السير وقلة الغذاء، أن يصطنع هذا المظهر البائس الحزين الذي يلبسه هؤلاء البؤساء لباساً حقيقياً، والذي يحقّ لهم أن يفتخروا به كأنما هو إتقان للمهنة بعد طول المران وكان إذا رآهم وقد أطلعهم الأفق البعيد يصرخ غاضباً.

– جاؤوا.. تفه.. تفه.. ماذا يفعلون هنا؟ هل ضاقت بهم روسيا على رحبها. أنا لا أفهم. إن الشعب الروسي أحمق.

وشرحت له العوامل التي تدفع هذا الشعب إلى الهجرة في طلب القوت ولكنه هزّ رأسه في شك وريبة وقال:

– أنا لا أفهم. كيف يمكن أن يكون هذا الأمر؟ ليس الشعب الكرجي غبياً إلى هذا الحد.

وأخيراً وصلنا كرش، جياعاً أمواتاً من الجوع. وصلناها في ساعة متأخرة من الليل وكان علينا أن نقضي ليلتنا تحت الجسر الخشبي في الميناء،

متخبئين متسترين فنحن لا نجهل أن المتشردين الذين سبّبوا زيادة كبيرة في سكان كرش، قد طردوا طرداً من المدينة، وخشينا أن نُساقَ إلى المخفر، ثم أن الجواز الذي يحمله شاركو ليس له، ومن الممكن أن يُعَقِّد هذا الأمر مغامرتنا تعقيداً غير قليل.

وتكرّمت علينا أمواج البحر فنثرت علينا رذاذها طوال الليل، وغادرنا عند الفجر ملجأنا تحت الجسر، وقد تبلّلت ثيابنا بالماء وتقرقفت أجسادنا من البرد، وقضينا يومنا كلّه متشردين على الشاطئ ولم نكسب غير عشرة كوبكات أعطتنيها زوجة خزري حملت له حاجاتها من السوق إلى البيت.

بقي علينا أن نجتاز مضيق (كرش) إلى (تاماني) ولم نجد نوتيا يستأجرنا مجدفين لقاء نقلنا فقط إليها. وذهبت توسلاتي ومساعي إدراج الرياح فإن زملاءنا المتشردين قاموا بمغامرات كثيرة جريئة جعلت الناس يخشوننا ويتقوننا ويضعوننا في زمرة الحفاة وكانوا في ذلك على صواب.

وأقبل المساء، فقررت وأنا ناقم على نفسي وحظي، ناقم على العالم كلّه، أن أقوم بمغامرة طائشة.. نفذتها فعلاً عندما وُلِدَ الليل.

- 5 -

هبط الليل فتسللت أنا وشاركو إلى منطقة الجمرك، ووجدنا هنالك ثلاثة مراكب تربطها سلاسل حديدية بحائط الرصيف الحجري، الليل أسود حالك السواد، والريح تعصف وتزمجر والقوارب تصطدم، والسلاسل تصلصل، وكان سهلاً عليَّ أن أفك حلقة سلسلة من سلاسل هذه المراكب بتحريكها وفوق رأسنا على بعد خمسة أمتار كان الحارس الجمركي يتنزه ويحرس ويصفر، وكان إذا اقترب هدأت وقطعت عملي فإذا ابتعد استأنفته، والحق أن هذه الحيطة، كانت زائدة، فليس في العالم شخص يستطيع أن يفترض وجود إنسان يتجرئ على القيام بمثل هذه المغامرة، في مثل هذا المكان، وفي مثل هذا الجو: فيهبط الماء حتى يغمر عنقه، ويتعرض في كل لحظة لموجة من الموجات تكتسحه وتسوقه، ثم أن السلاسل كانت تجلجل وتتصادم في غير هوادة ولا انقطاع، ولم أكن أنا شيئاً في وسط هذه الجلجلة وذلك الدوي.

وتمدّد شاركو في أعماق القارب ودمدم كلمات تضيع في جلبة الأمواج، وأخيراً انفصلت الحلقة... وجاءت موجة فحملت الزورق وألقت به على بعد أمتار من الرصيف وكنت قد أمسكت السلسلة فسبحت إلى الزورق ثم صعدت إليه واقتلعنا لوحتي الجلوس فيه وأثبتناهما في موقع استناد المجدافين... وأبحرنا...

الغيوم تعدو عدواً، والأمواج تقفز قفزاً وتسلّم شاركو سكان القارب وكان يختفي هو ومؤخرة القارب تحت الأمواج حيناً بعد حين ثم يظهر فيعلوا علوّاً كبيراً وكأنه يريد أن ينقض عليه ونصحته أن يربط فخذيه بطرفي المركب، وكان عليه أن يفعل هذا دون انتظار لأوامري، وأن يكفّ عن صراخه إذا كان حريصاً على ألا يسمعه الحارس، فأطاع وسكت، ولم أتبيّن معالم وجهه ولكنه بدا لي دائرة بيضاء، ولم نستطع تبادل صنيعنا فكنت أشير له بما يجب أن يفعل فينفذ طلباتي بيدي بحار صنّاع ماهر. ولم تفدنا اللوحتان اللتان جعلناهما مجدافين إلا في خلع كتفي ومفاصلي.

كانت الريح تهبّ من ورائنا فتسوقنا سوقاً، ولم أبال باتجاه المركب، ولكني حرصت على ألا نخرج من المضيق، وكان هذا الأمر سهلاً عليّ بمراقبة أنوار كرتش التي كانت واضحة لنا. وزارتنا الأمواج فوق ظهر المركب وتلاقت في غضب وحقد، وكنا كلما أوغلنا في عرض البحر زادت حركة الأمواج قسوة وعنفاً، فزأرت زئيراً مخيفاً يشلّ كل تفكير.

واندفع المركب اندفاعاً يزدادا في اطراد، وأصبح عسيراً عليّ أن أحافظ على الإتجاه الضروري، فنحن تارة نغوص في بطون الأمواج، وتارة نصعد إلى ذرى الجبال السائلة.

واحلولك الظلام وكثف، وانخفضت قبّات الأمواج قليلاً، وتوارت الأنوار على البر وراء الظلمات، وشعرت بالخوف، وخُيِّلَ إليَّ أن لا نهاية لهذا الامتداد بين الماء الغاضب، ولم أرَ إلا هذه الأمواج تأتي

زاحفة من جلباب الظلام فتتكسّر على القارب، واقتلع الموج لوحاً من اللوحين، وقذفت بالآخر إلى أعماق القارب، وأمسكت بكلتا يدي جانبيه، وسمعت شاركو يزعق زعقات قويّة وشعرت أني أستحق الشفقة والرثاء، وأني في هذه الظلمات إنسان وحيد لا حول له ولا قوة قُذِفَ به إلى بحر تحرر من كل قيوده، وأصمّ أذني برعوده وقلبت حولي نظرات مفعمة بالحزن والخوف، وبدا لي منظر البحر رتيباً مروّعاً: أمواج متعممة بعمائم من الزبد، تتناثر على جانبي القارب رذاذاً دقيقاً مالحاً، وغيوم ثقيلة متمزقة كأنها أمواج أخرى.

وبقي في خاطري انطباع واحد: هذه الفوضى التي تحيط بي يمكن أن تكون أكثر عنفاً ممّا هي عليه الآن ألف مرّة، وأشدّ هولاً ممّا هي عليه الآن ألف مرّة، ولعلي كنت ناقماً عليها ضيقاً بها لأنها تلملم نفسها وتكفكف من قوتها، وتأبى أن تنطلق إلى أقصى مداها، وبدا لي الموت أمراً حتماً لا مناص منه، ومع ذلك فقد رأيت من الضروري ألا اقبل هذا القانون الذي لا يمكن خرقه، والذي يتساوى عنده كل شيء، والذي يقضي على كل شيء، ولو لم يكن كذلك لكان أكثر قسوة وأشد ألماً وشعرت أني لو خُيِّرْتُ بين أن أموت حرقاً وبين أن أغرق في مستنقع لوجدت النار خيراً مآباً وأكرم عقبى.

وصرخ شاركو: - لنصنع شراعاً.

- وأين الشراع؟ هذا معطفي - هاته ولا تترك الدفة.

وتحرك شاركو قليلاً ثم قال: - خذ.

وزحفت في قعر المركب، واستطعت بعد لأي أن أنزع لوحاً أولجته

في كم المعطف ونصبته كالشراع وأمسكته بين قلعي، وبينما أنا أهم بإمساك الكم الثاني وذيل المعطف حدث أمر لم يكن في الحسبان...

قفزنا قفزةً منكرةً ثم سقطنا في لجةٍ سحيقةٍ... ووجدتني في البحر ممسكاً المعطف بإحدى يدي والحبل باليد الأخرى... والأمواج تجري فوق رأسي، وفي ملآن بماء مالح مر، بل إن هذا الماء يملأ أذني وأنفي وحلقي... وتشبّثت بالحبل تَشَبُّثَ اليائس واستطعت أن أنجو من الماء ثم عدت فغصت فيه مرةً أخرى وصدم رأسي ألواح الزورق، قذفت بالمعطف على الزورق الذي انقلب ظهراً لبطن وجعلت أتسلّقه، واستطعت ذلك بعد جهود فامتطيت المركب كأني أمتطي صهوة حصان، ورأيت شاركو يقفز ويغوص في البحر متمسّكاً بالحبال المحيطة بالزورق المثبّتة في حلقات من حديد.

وصرخت: – هل أنت حي؟

ورفعته الأمواج وألقت به في المركب فتلقيته وكنت لا أزال أمتطي سرج المركب وقدماي في حباله كأنها ركاب. ولكن هذا الوضع لم يكن ثابتاً، فلربما جرفتني أوّل موجة. وتمسّك بي شاركو وهو يضرب صدري برأسه، وكان يرتجف كل عضو من أعضائه حتى أني لا أسمع صكّة أسنانه. كان عليَّ أن أقوم بعمل، فحيزوم الزورق مدهون لا يصلح للجلوس، وقلت لشاركو أن يهبط إلى الماء وأن يتمسّك بحبال المركب عن يمينه وأمسك بها عن يساره، فأجابني بضربة رأس فوق صدري.

واستمرّت الأمواج في رقصتها الغاضبة، واستطعنا أن نتماسك بعد

لأي، وكان الحبل ينشر قدمي كأنما هو منشار، ورأينا جبال الماء تُنْصَبُ شامخة ثم تنهار وتتوارى في جلبة وجلجلة.

وعدت إلى شاركو فأمرته في حزم وعزم فأجابني بضربات أشد حزماً وعزماً...

ليس في الوقت متّسع نضيّعه في هذا الهزل. وأمسكت بذراعيه ففصمتها واحداً بعد واحد عن جسدي، وأنزلته إلى الماء وأنا أربط يديه بالحبال. وعندئذ حدث أشدّ ما في هذه الليلة المرعبة هولاً ورعباً.

قال شاركو وهو يحملق في وجهي:

- أتريد أن تغرقني؟

كان عملي مخيفاً، وكان سؤاله مخيفاً، ولكن لهجة السؤال كانت أشدّ هولاً: فيها خضوع ذو حياء وفيها طلب للرحمة في تواضع، وفيها أمل سائمٌ هو أمل إنسان يفقد آخر خيط من خيوط رجائه في النجاة من موت أكيد مخيف. وأشد من هذه اللهجة ومن ذلك السؤال هولاً ورعباً هاتان العينان الجاحظتان في هذا الوجه المكفهر الأزرق الذي يقطر الماء.

وصرخت به: - تمسّك بالحبال جيداً.

وألقيت بنفسي في الماء وتمسّكت بالحبال.. هذه قدمي تصطدم بشيء من الأشياء... وكانت الصدمة أليمة لم تدعني أفهم شيئاً... ولكني سرعان ما ضبطت نفسي ففهمت. وهزّ أعماقي إحساس عجيب: كنت ثملاً.. وشعرت أني قوي قوّة لم أشعر بها أبداً وصرخت صرخة هائلة:

- الأرض... الأرض...

قد يشعر الملّاحون العظام، حين يكتشفون عوالم جديدة، بحماسةٍ أكثر حدة من حدة حماستي، ولكنني لا اعتقد أنهم يصرخون صرخة أقوى من صرختي، وزأر شاركو ثم قذفنا أنفسنا إلى اليم..

وما اسرع ما نهنهنا من فرحنا.. الماء ما يزال يغمر صدورنا.. ولا شيء يدلّ على أرض. نعم إن الأمواج هدأت قليلاً واكتفت بالتدحرج فوق رؤوسنا. لم أترك المركب لحسن الحظ. بل أمسكتُ به من ناحيةٍ وأمسك به شاركو من ناحية أخرى. وتقدّمنا هكذا في حذر شديد وفي غير ما تصميم، وقلبنا المركب.

أما شاركو فكان يلعن ويضحك.. وكل شيءٍ ما يزال أمامنا أسود، ومن ورائنا وعن يميننا ما يزال يضطرب، وعن شمالنا كان أقلّ حدةً وعنفاً فمضينا نحو الشمال.

قعر البحر صخري ورملي ولكنه غير منتظم. نضطر في بعض مواضعه إلى السباحة بيد وإمساك المركب بيد، ونمشي في بعض مواضعه فلا يصل الماء إلى ركبتنا، فإذا بلغنا موضعاً عميقاً تأوّه شاركو وارتجف، وفجأةً لمعت أمام أعيننا الأنوار.. الأمان.. الأمان..

وهدر شاركو هديراً، ولم أنسَ أن المركب للجمرك فذكرت شاركو به فسكت ثم سمعته بعد لحظات يبكي وينتحب، ولم أستطع تهدئته، بل لم أجد زمناً أعمل فيه على تهدئته.

ونقص الماء ثم نقص.. ها هو ذا دون ركبتنا.. وصل إلى رسغنا.. ثم لا ماء.. ولا بحر..

وجررنا القارب بآخر ما بقي فينا من قوّةٍ ورمق.. وتعثّرت أقدامنا

بشيءٍ أسود لعلّه جذع شجرة فقفزنا، وتعثرت أقدامنا بأشواك وأشواك فحطمناها.. إن الأرض تستقبلنا استقبالاً ليس فيه احتفال ولا احتفاء ولا كرم.. ولكن ما كنا لنعبأ بهذا كلّه.. أننا نركض إلى منزل رأيناه على بعد فرسخ.. وخُيِّلَ إلينا أن في بصيصه ابتسامة ترحب بنا وتدعونا.. أما الليل فبدا حواليه أشد قتاماً وظلاماً.

- 6 -

نجم من الظلام ثلاثة كلاب ضخمة الأجسام، طويلة الشعر وهجمت علينا أما شاركو الذي ما زال ينتحب فقد صرخ صرخة مرعبة وسقط إلى الأرض، وألقيت المعطف الذي يقطر ماؤه في وجه الكلاب وانحنيت إلى الأرض أتلمّس حجراً أو عصاً فلم أجد إلا الأشواك تمزّق أصابعي وعادت الكلاب فهاجمتنا في عناد فوضعت إصبعي في فمي وصفرت تصفيراً حاداً فتفرّقت الكلاب وسمعت وقع خطوات تركض وتقترب.

وما هي إلا لحظات حتى كنا نصطلي ناراً تتأجج ويحيط بها أربعة رجال يلبسون فروات مقلوبة، ويصغون إليّ وأنا أقصّ عليهم أنباء مغامرتي، وينظرون إلينا نظرات فيها شك وحذر.

أما اثنان منهم فكانا يجلسان على الأرض ويمصّان غليونهما في قوّة، وأما الثالث فكان كهلاً ذا لحية سوداء كثّة، يعتمر بعمامة قوقازية عالية ويجلس على هراوة ذات عرجون وأما رابعهما فشاب أشقر الشعر يساعد شاركو المنتحب على خلع ملابسه. وإلى اليمين كل منهم هراوة عظيمة عجراء.

وهناك غير بعيد بدت الأرض مستورة بنتف شهب تذكّرنا بالثلج إذا جعل يذيبه الربيع، فإذا أمعنت النظر بدت لك قطعاناً من الغنم

متلاصقة متلاحمة تتجاوز عشرات الألوف تتراكم فوق بعضها وهي نائمة وتؤلف بقعة ملوّنة تغطي السهل في ظلام الليل، وينفلت منها حيناً بعد حين ثغاء فيه خوف.

ونشرت المعطف أمام النار اجففه وقصصت في صدق وإخلاص قصة المركب.

وسألني عجوز كل ما فيه بياض ناصع، رغم مافي وجهه من صرامةٍ، وما في نظراته التي لم تفارقني من نفاذ!

- وأين تركت الزورق؟

وأخبرته عن موضعه فقال:

- يا ميخائيل اذهب وانظر إليه.

وأخذ ميخائيل ذو اللحية السوداء هراوته فوضعها على كتفه، ومضى إلى الشاطئ.

جفّ المعطف وأراد شاركو أن يلبسه فوق جسده العاري فقال له الشيخ:

- مهلاً.. مهلاً.. در حول النار حتى تنتظم دورة دمك.. هيا.

ولم يفهم شاركو بادئ الأمر، ولكنه ما لبث أن وقف عرياناً عرياً كاملاً، وجعل يرقص في وحشيةٍ ليس لها مثيل: كان يقفز كالرصاص فوق النار، ويدور وينفتلُ ويضرب الأرض بعقبيه، ويزعق زعقات هائلات، ويحرّك يديه حركات مضحكات، الحق أن مشهده هذا يدعو إلى ضحك مميت، واستلقى اثنان من الرعاة على الأرض ضحكاً، وكادت تنشق منهما الحناجر، أما الشيخ فما برح مهيب الطلعة، يحاول أن يتبع رقصة شاركو

بالتصفيق، فلا يستطيع، فيلاحظ الحركات ويهز رأسه ويهز شاربيه ويصرخ في صوت أجش:

- هيه! هيه! عال.. طيب.. عال.

وتقلّب شاركو أمام النار كما يتقلّب الأفعوان، وغيّر حركاته وأوضاعه، وقفز على قدم واحدة وفحص برجله الأخرى الأرض، وما زال يرقص حتى غطى العرق جسمه الخضل ولمعت على ضوء النار قطرات حمر كأنها قطرات من الدم.

وجعل الرجال يصفقون تصفيقاً متجانساً موزوناً، وأما أنا فكنت ما أزال أرتجف من البرد وأتخيّل أن رحلتنا هذه ربّما تسير المتزمّتين من أمثال كوبر وجون فرن: غرق.. ضيافة.. رقصة بربرية.. نار.. كل شيء.. ودبّ في هذه الأفكار قلق على عاقبة هذه الرواية التاريخيّة وما ستنتهي إليه من مصير.

وجلس شاركو أخيراً وتلفعّ بمعطفه، وجعل يأكل وقد لمع في عينيه نور غريب يوحي إليّ بغير رضا، وأعطوني كذلك خبزاً وشحم خنزير.

وعاد ميخائيل فجلس ولم يتكلم وسأله الشيخ:

- ماذا رأيت؟

- رأيت زورقاً.

- ألا يجرفه البحر.

- كلا.

وسكتنا. وعاد إلى امتحاني. وقال ميخائيل أخيراً وهو لا يخص أحد بسؤاله:

- إذن فهل نقودهما إلى المخفر أو إلى الجمرك؟

وقلت: أهذا هو المصير؟

لم يجب أحد على سؤال ميخائيل.. وظل شاركو يأكل في هدوء.

وفكّر الشيخ ثم قال:

- هذا أو ذلك، كلا الأمرين حسن.

- سرقا مركباً للحكومة.. ويجب أن ينالهما العقاب.

وقلت - أيها الجد..

ولكنّه لم يسمع وظلّ يقول: - السرقة ليست مباحة.. نعم.. وقد يفعلان أكثر من ذلك إذا لم ينالا جزاءهما.

كان الشيخ يتحدّث في هدوء يغيظني، وعندما سكت هز الجميع رؤوسهم صامتين موافقين:

- أرأيت.. لقد سرقت فكفّر عن عملك، يا ميخائيل.. المركب هل هو هناك؟

- نعم - حسناً حسناً ألا يجرفه البحر؟ - كلا.

حسناً حسناً.. غداً سيعيده البحارة إلى كرش.. ولن يرفضوا نقل زورق فارغ؟

حسناً حسناً.. أما أنتما أيها الرفيقين.. يا صاحبي الأسمال.. فلستما أبداً من الجبناء الرعاديد.. ولكن ماذا كان مصيركما لو جاوزتما مكانكما نصف فرسخ..؟ تبلغان عرض البحر.. وماذا يحل بكما إذا بلغتما عرضه؟ قولا!!

توافيان قعره وترسبان بأسرع مما توافيه فأس من الحديد نعم تغرقان وهذا كل ما هنالك..

وسكت الشيخ وقد هزّت شاربيه بسمة ساخرة:

- وعلام لا تجيب يا أزعر..

ومللت ما في حديث العجوز من موارية.. وشعرت أنه يهزأ بنا على الرغم من أنّي لم أفهم مقاصده فهماً تاماً.

وقلت له متجهماً: ما زلت أسمع - ماذا؟ -لا شيء.

يبدو أنك تستخف بي؟! أيليق بك أن تهزأ بمن هو أكبر منك وسكت، معترفاً في قرارة نفسي بما في عملي من خطأ.. وعاد الشيخ يقول:

- أتريد أن تأكل إذا كنت لم تشبع؟! حسناً لا تأكل؟! ولكن ألا تريد زاداً للطريق..

وانتفضت فرحاً وسروراً ولكني تمالكت نفسي فلم أدع فرحي يظهر على وجهي، وأجبت في هدوء.

- أما الزاد للطريق فأقبله..

- آه! آه.. أعطوهما ما يكفي طريقهما من الخبز والشحم، وإذا وجدتم غير ذلك فليأخذوه.

وسأل ميخائيل - أيسافران؟

وشارك الآخران ميخائيل سؤاله بنظراتهما. وقال الشيخ:

- وماذا نصنع بهما؟.. أخبرني.

وقال ميخائيل في لهجة ليس فيها رضا: - ولكن ألم نعتزم تسليمهما إلى المخفر أو الجمرك.

وشاركو ما يزال يتقلّب حول النار ويخرج من حين إلى حين رأسه من تحت معطفه ويتطلع إلينا في فضول وهدوء.

- وماذا يصنعان في المخفر؟ لا شيء!! سيذهبان إليه إذا راق لهما أن يذهبا..

- وكيف ندبّر مسألة المركب؟

- المركب؟ نعم المركب؟ أليس هناك؟

- نعم هناك.. إذاً فليبق حيث هو.. سيأخذه ايفاشكو إلى المرفأ ويسلّمه للبحّارة فينقلونه إلى كرش.. هذا كل ما في الأمر..

ورمقت الشيخ في دقّة واهتمام.. ما من شيء يختلج في وجهه الهادئ الذي لوّحته الشمس وَلفحته الريح، وترقرقت عليه ظلال الموقد. وقال ميخائيل:

- ألا يؤدي اطلاق سراحهما إلى مشكلة؟

- كلا لن يؤدي إلى مشكلة أبداً ما دام لسانك في فمك غير طويل.. ولعلّنا إذا قدّمناهما إلى المخفر أزعجنا أنفسنا وأزعجناهما.. وكفانا ما نحمل من أعباءٍ وكفاهما ما قاسيا من عناءٍ.. إذن فليذهبا.. ولكن أين تقصدان؟

وأجبته، وكنت قد أخبرته من قبل: إلى تفليس.

- إنها بعيدة.. ألا ترىٰ أن المخفر قد يؤخرهما ويضيّع عليهما وقتهما.. ومتىٰ يصلان. أليس خيراً لهما أن يواصلا سيرهما؟ أليس كذلك يا شباب!!

وقال رفاق الشيخ: - افعل ما تشاء.

وتخلّل لحيته البيضاء بأصابعه ثم قال:

- هيّا يا شباب.. سيروا بحراسة الله.. وسنعيد المركب..

وقلت وأنا أخلع قبّعتي: - شكراً لك أيّها الشيخ.

- شكراً؟! وعلامَ الشكر؟!

وقلت وأنا مرتبك: - شكراً يا أخي شكراً.

- وعلامَ الشكر؟! يا لها من فكرة؟! أقوله لـه: سـافر في حراسـة الله فيقول لي شكراً.. وهل ظننت أني سأسلمك؟

- أجل لقد خشيت ذلك.

وقطّب الشيخ حاجبيه وقال:

- آه آه: لِمَ أيّها الإنسان تريد أن تلقـي في الـضلالة أخـاك الإنـسان؟ أليس حرياً بك أن تهديه الصراط المستقيم الـذي هـداك الله إليـه، ولعلّـك ستلقاه يوماً ما. وقد نلتقي يوماً وقد يكون حتماً علينا أن يعين بعضنا بعضاً.

ورفع قلنسوته الجلديّـة ذات الـشعر الطويـل يحيينـا، ورفـع رفاقـه قبّعاتهم، ودلّونا على الطريق (اناب) ومضينا.

وكان شاركو يضحك لأمر ما..

- 7 -

سألته: – ما الذي يضحكك؟!

كنت مفتوناً بالشيخ وبطريقته في فهم الحياة، وكنت سعيداً بهذه النسمة الندية تبشّر بالفجر القريب وتتنفس في صدورنا، سعيداً بهذه السماء التي تخلّصت من كل غيم، وهمت أن تلتهب، سعيداً بالشمس وهي تشرق، وبالنهار وهو يولد.

وغمز شاركو جانبي غمزة ماكرة ثم عاد فانفجر ضاحكاً ولم أستطع أن أمنع نفسي من بسمة وأنا أسمع ضحكته المرحة الصافية. وشعرت، بعد الساعتين أو الساعات الثلاث، التي قضيناها نصطلي نار الرعاة، وبعد ذلك الخبز الطيب والشحم اللذيذ، أن لم يبقَ لنا من آثار تلك المغامرة الرائعة إلا تكسر غير ذي بال في العظام سوف يزيله السير عن قريب.

– ومِمَّ تضحك؟ ألأنك سعيد بنجاحك تشعر أنك حي وأنك غير جائع؟

وهزّ شاركو رأسه هزّة المنكر، ثم وكزني وكزةً طيبةً، وكشّر عن أنيابه وعاد يضحك. فلما هدأ قال لي:

– ألا تعرف لماذا اضحك؟ إذن فسأخبرك.. أرأيت حين قالوا أنهم

سيذهبون بنا إلى المخفر أو إلى الجمرك.. أعلمت ما سأفعل بك لو قادونا إليهما، ألم تخمّن؟ حسناً.. لو أخذونا إلى المخفر لقلت: هذا الرجل حاول إغراقي.. وسأبكي وسيشفقون عليّ فيطلقون سراحي، أما أنت فسيلقّونك في السجن أفهمت..

وظننت بادئ بدء أنه يمزح ويعبث بي.. ولكن وأسفاه.. سرعان ما أقنعني أنه كان جاداً كل الجد، مصمّماً كل التصميم، أقنعني قناعةً تامةً لا تقبل الرد والجدل، قناعة بلغت بي حداً لم أستطع بعده الغضب في وجه هذه الأنانيّة الطائشة.. بل لقد شعرت بالحنان والإشفاق على هذا الصاحب وعلى نفسي، وإلا فخبّرني أيّة عاطفة يمكن أن تختلج في نفسك، وأنت ترى رجلاً يعلن لك نياته القتاليّة، في لهجة صادقة وضحكة مرحة؟ بل خبرني أيّ موقف يمكن أن تقفه منه حين لا يرى هو في نذالته السوداء إلا مزحة لطيفة مضحكة؟

وشرعت أبيّن له في حماسة ما في فكرته من لؤم وشناعة، فأجابني في برود مطلق أن ليس يحقّ لي أن أنظر إليه كما أنظر إلى نفسي، وأن أضع نفسي مكانه أليس هو يحمل جوازاً مزوّراً يجعل موقفه حرجاً مهلكاً؟ ولقد أوحي إليّ هذا التصريح أفكاراً مرّة مرعبة فقلت له:

– اسمع ! هل اعتقدت حقاً أني نويت إغراقك؟

– ظننت ذلك حين رميت بي إلى الماء فلمّا رأيتك تهبط أنت إليه طار الظنّ. وصرخت:

– الحمدلله.. وشكراً لك على هذا.

– ليس ما يدعوك إلى شكري.. ولكني أنا الذي أشكرك.. كنا معاً

أمام النار نرعد برداً، وكان المعطف لك فلم تأخذه، بل جففته وقدته إليّ، ولم تحتفظ لنفسك بما يسترك، ولهذا فأنا أشكرك.. أنا موقن أنك طيب القلب.. وأنا اعترف لك بما لك عليّ من دين إذا بلغنا تفليس. سأذهب بك إلى والدي فأقول له: - «هذا هو الرجل يا أبتاه.. قدم له طعاماً وشراباً، أما أنا فأقذف بي إلى الاصطبل مع الحمير» هكذا سأقول له وستسكن في بيتنا وستتعهّد حديقتنا بعنايتك.. وستشرب الخمر ما طاب لك أن تشرب.. وستأكل ما لذ لك أن تأكل.. ستعيش عيشةً راضيةً ناعمة: كُل في صحني واشرب من كأسي.

وجعل يسرف ويسرف في حديث مفصّل طويل عن الحياة التي سيمهدها لي في تفليس تمهيداً، أما أنا فقد كنت أشعر وهو يتحدّث بذلك بالألم العميق الذي يشعر به الناس الجدد: ألم أولئك الذين يرغبون في السير إلى أمام، فإذا بهم يحيدون عن الطريق المستقيم، وإذا بهم يتيهون ويضلّون في مهامه الحياة، وإذا بهم يتعثّرون في طريقهم بأمثال هذا الأمير، بهؤلاء الأفراد الذين هم غرباء عنهم غرابةً كاملةً، فهم لا يقدرون على فهم أهدافهم، وهم لا يستطيعون مشاركتهم في آمالهم! ما أشقّ حياة هؤلاء المعتزلة وما أشقاهم: إن الريح تمضي بسفينتهم إلى حيث لا يريدون، إنهم تلك البذور الطيبة التي لا تجد لها تربة صالحة طيبة.

وبدا الصباح وغمر البحر نور ذهبي مورّد، وقال شاركو:

- انا نعسان.

واسترحنا، وتمدّد في حفرة حفرتها الريح في الرمل على بعد قليل من

الشاطئ، وغطّى رأسه وجسمه بمعطفه وغط في نومه رأساً، وجلست إلى جانبه أرقب البحر..

ما يزال البحر يعيش عيشته الواسعة النشيطة: الأمواج كالقطعان تثب إلى الشاطئ ثم تتكسّر على الرمل، فيمصّ ماءها مصاً وينشّ نشيشاً خفيفاً، ثم تعود خائبةً وقد كللها تاج من الزبد والرغوة، فتهرع إلى نجدتها أمواج أخرى وتكرّ جميعاً لتغزو الأرض وتبسط نفوذها على مناطق جديدة منها..

وهناك في أقاصي الأفق البعيد، من قلب البحر الواسع تتجمّع أمواج جديدة هائلة.. تتقدم ثم تتقدم من دون هوادة في جيوش متلاحقة يشدّ بعضها بعضاً، ويحدوها أمل واحد وإرادة واحدة.. لا تتغير.. والشمس تُضِيُء بأشعتها ذوائبها فتبدو أعراف الأمواج كأنها هي مصبوغة بحمرة الدم. ليس في هذه الأمواج كلّها قطرة واحدة لا تشترك في هذا الجهد، أو يضيع حظها من هذا الجهد. هذا الجهد العنيد في سبيل عمل تفهمه فهماً وتعيّه وعياً، وتعلم حقّ العلم أن هجماتها المستمرة المنتظمة ستقدّم إليها عمّا قريب فريستها طيبة سائغة.

فتنتني جرأة الأمواج الأوّل التي تثب على الرمل الأخرس وأكبرت تضحيتها، وأعجبت بهذا البحر الذي يلحق بها من ورائها.. هذا البحر الذي تلوّنه الشمس بكل ما في قوس قزح من ألوان هذا البحر القوي العظيم الذي يشعر بقوّته وعظمته.

وبدت من وراء ذلك الرأس الذي يشقّ البحر شقاً بآخرة كبيرة مشت في جلال للقاء هذه الأمواج، وداست في كبرياء صفحة البحر

المضطرب به فقلقت الأمواج وتجمّعت فهاجمتها في شدّةٍ وعنف، وظلّت الباخرة تسير وأوحى إليّ جمالها المتماسك وبريق أجزائها المعدنية، أو لعلّهما كانا يوحيان إليّ في غير هذه الظروف بما في الإنسان من كبرياء.. هذا الإنسان الذي يعرف كيف يستخدم عناصر الطبيعة ويخضعها.

ولكن وأسفًا! ها هنا يتمدّد إلى جانبي إنسان — عنصر!

- 8 -

سرنا قدماً عبر مقاطعة (تيرسك)، وكان شاركو أشعث الشعر يلبس أسمالاً تدعى ثياب ممزقة تمزيقاً مخيفاً، وكان علاوة على هذا مستجهّم الوجه كأنه شيطان مريد، رغم أنه شبع فما يدري ألم الجوع، فقد كنا نجد في هذه المقاطعة عملاً متى أردنا، أو على الصحيح متى أردت. فقد كان صاحبي غير قادر على بذل أيّ جهد، حاول مرةً أن يضرب سوق القمح ويزيل عن الحبّ القش، فلم ينقص من النهار إلا نصفه حتى كفّ عن العمل ويداه تقطران دماً، وكنا مرةً أخرى نقطع جذور الأشجار فوجد وسيلة ما لجرح رقبته بالوتد.

وسرنا على مهل، نعمل يومين ونمشي اليوم الثالث، ذلك أن الأمير لم يحاول أن يعدّل طريقته في الأكل قليلاً ولا كثيراً، وكان شرهه سبباً في أني لم أكن أستطيع أن أوفّر ما يلزم من المال لأشتري له به ما يكسو عريه، ويسد به هذه الثقوب التي تلمها خرق من ألوان مختلفات، وكان قد شرع يرتاد حانات القرى فحاولت إقناعه بهجرها وترك الشراب فلم يصغ إلى ملامتي.

ونشل من كيسي ذات يوم، خمسة روبلات جمعتها بعد لأي وأخفيتها عنه لأشتري له بها ما يصلح أمره، وعاد مساء إلى المقثأة التي كنت أعمل

فيها سكران ثملاً ترافقه امرأة قوقازية ضخمة كأنها السعلاة، جعلت تحيّتي هذه الشتائم.

- صباح الخير يا كافر يا شقي.

وعجبت وسألتها: ولِمَ أنا كافر؟ فأجابتني في قحّة: - ذلك لأنك تحول بين هذا الفتى وبين النساء! ولم تجعلهنّ حراماً والقانون يجعلهنّ حلالاً. لعنة الله عليك.

ووقف شاركو إلى جانبي يوميء برأسه مؤمناً موافقاً، كان ثملاً ثملاً مخيفاً، فإذا حاول أن يتحرّك تخبّط وترّنح كأن أعضاؤه منفصلة عن جسده، وقد تبّدلت شفته السفلى، وعيناه اللتان خلتا من أيِّ تعبير تتفرسان في عناد وبلادة.

وصرخت المرأة: - وماذا تنتظر؟ هات الدراهم. .

وبهت فقلت: - وأيّة دراهم!

- دراهمه ردّها إليه.. ردها.. وإلا أبلغت الشرطة. ردّ إليه مائة وخمسون روبلاً سرقتها منه في أوروبا عدّاً ونقداً.

ما العمل؟ إن هذه الأنثى اللعينة، وهي على ما هي عليه من سكّر وعربدة تستطيع فعلاً تحريك الشرطة ودوائر الحكومة في هذا البلد، وهم لن يرفقوا بأمثالنا من السائحين بل سيلقون علينا القبض ومن يدري عقباه علينا. ولجأت إلى سياسة اللين والرفق، واستطعت أن أعيد إليها هدوءها بثلاث زجاجات من الخمر فارتمت على الأرض بطيخة من البطيخ ثم نامت ونام شاركو، وغادرنا القرية عند الصباح وتركنا فيها المرأة مع البطيخ.

ومضى شاركو متجهّم السحنة من سكرة أمس، منتفخ الوجه، متغضّن المعالم، يبصق، فلا ينقطع عن البصاق ويزفر زفرات عميقات، وحاولت التحدث إليه فكان لا يجيبني ويكتفي بهز رأسه كأنما هو حصان أنهكه التعب.

النهار شديد القيظ، والهواء مفعم بروائح ثقيلة تنبعث من الأرض المبتلة التي يغطيها عشب كثيف ثقيل، عالٍ يكاد يبلغ أكتافنا، ومن حولنا سكون مطلق، أما البحر وهو كالمخمل الأخضر فكان يصعد إلى السماء أنفاساً حارة حادة يترنح بها من يشمها، وحاولنا أن نختصر الطريق فسرنا في درب ضيق تزحف فيه حيات صغيرات حمر تتلوى تحت أقدامنا، وطالعتنا في أقصى الأفق سلسلة جبال تهب لها الشمس ظلالاً فضيّة. تلك هي جبال داغستان: صمت مطلق يخدر العقل، ويوحي بأحلام مطمئنة هادئة، وفي السماء قطعان من الغيوم السود تهرع إلينا لتلحق بنا، ويضمّ بعضها بعضاً، ثم تستولي على الأفق كلّه من ورائنا، ولا تبدو أمامنا إلا قزعات تحجب عنا جانباً من السماء، وسمعنا من بعيد جلجلة عاصفة أدركها المخاض. يزداد رعدها قوة وقرباً.. وهطلت قطرات كبيرة من المطر على العشب فخشّ خشيشاً معدنياً.

ليس لنا ملجأ.. والظلّ يغمر السهل، وشكوى العشب ترتفع وتسري فيه رعدة الخوف، وهدر الرعد، واضطرب الغيم ومزقه برق أزرق يخطف البصر ودوى الرعد مرةً أخرى، وعادت الظلمة فتمطّت على الكون وتوارت وراءها الجبال الفضيّة، وانهمر المطر سيولاً ترافقه الصواعق تئزّ فوق السهب واحدة بعد واحدة، وعصفت الريح فتمدّد العشب على ظهر

الأرض، وازداد المطر ورنّحه الهواء. كلّ ما في الكون يرتجف ويهتزّ ويختلج.. والأنوار الخاطفة للأبصار تمزّق بسهامها أحشاء الغيوم وتنير بزرقتها شبح الجبال البعيد فلا يكاد يبدو حتى تنطفئ البروق فينطفئ، كأنما ابتلعته هوة سحيقة ليس لها قرار.

فوضى من الأصوات تزمجر وترتعد، وأصداء ترجعها ترجيعاً يهب لها حياةً جديدةً فكأنها تطهّر الأرض التي دنستها السماء الغضبى بنيرانها، فهي ترتجف خوفاً من هذا الغضب الأرعن. وشاركو يرتجف ويهمهم ويلهث كأنه كلب قلق، أما أنا فشعرت بموجة من الفرح وكأني تحررت من أعباء الحياة اليوميّة فأنا أنظر إلى هذه الألواح الفنية المدهشة المفجعة التي ترسمها العاصفة بريشتها على الأرض وهزتني هذه الفوضى العجيبة، وأحسست بشيء من البطولة يغزو قلبي ويسري في عروقي واطمأنّت روحي إلى هذا الانسجام الوحشي المخيف وشعرت بجوع إلى الاشتراك في هذا الانسجام إلى إظهار حماستي الكاملة وترحيبي التام بهذا المبدأ الغامض الذي ينتصر على الظلمات وينتصر على الغيوم.. وهذه الشعلة الزرقاء التي تحرق السماء وتحرق لي صدري.. ولكن كيف أستطيع أن اترجم هذا الإضطراب كيف أستطيع أن أعرب عن ذلك الإعجاب، وكلاهما يوحي إليَّ هذا المنظر الطبيعي الرائع ويخلقه في نفسي خلقاً.

وجعلت أغني في صوت عال، بكل ما أملك من قوّة.. الرعد يقصف والبرق يلمع والعشب يدمدم، وأنا أغني.. أغني شاعراً أني قد ذبت في هذه الأصوات المتباينة، وفضت حماسة ونشاطاً.. ولي الحق فلست أزعج أحداً من الناس إلا إيّاي.. وحاولت أن أجعل من هذه العظمة الحيّة

وهذا الجلال القوي عظمتي وجلالي.. وها هي ذي تلك القوة التي تنطلق تصهرني في ذاتها..

الزوبعة في البحر. والعاصفة في البر أمران لا أعرف في الطبيعة شيئاً أعظم منهما ولا أسمى. إذن فقد غنيت بملء رئتي وبملء أوداجي.. وأنا مقتنع قناعةً مطلقةً أني لا أزعج أحداً من الناس، وأن ليس من أحد يلومني على ما أفعل، وفجأةً أحسست بيدين تقبضان على ساقي، وترميانني في حفرة ماء.. وإذا بشاركو ينظر إليَّ بنظرات قاسيةٍ تتميّز غيظاً.

- هل أنت مجنون؟! كلا! إذن فاسكت. كفّ عن الصراخ.. وإلا انتزعت حنجرتك من صدرك انتزاعاً. هل سمعت؟

وسألته متعجباً: - وهل أزعجتك؟

- إنك تخيفني. هل فهمت؟ العاصفة تزأر، الله يتكلّم، وأنت تجرؤ على الغناء.. ما رأيك؟

وأجبته أن لي مطلق الحق في الغناء، حين يطيب لي الغناء، وأن له مثل هذا الحق.

فأجاب في حدةٍ: - لا أريد أن أغني.

- إذن فلا تغن.

- ولا تغن أنت.

- ولكني أريد أن أغني.

وقال لي في غضب: - آه! أخبرني ما أفكارك. أخبرني من أنت؟ هل لك منزل تأوي إليه؟ هل لك أب يحنو عليك؟ هل لك أمّ ترأف بك؟ هل لك أقارب ينصرونك؟ هل لك أملاك تدر عليك مالاً وخيراً؟

أخبرني من أنت وما شأنك على الأرض؟ أنت تعتقد أنك رجل! ولكن أنا أنا الرجل... إن لي كل هذا - ثم ضرب بيده صدره - أنا أمير على!... أما أنت نعم أنت.. فلست شيئاً.. لا شيء لك.. وتقول «أنا أنا» ومن ذا الذي يعرفك؟

أما أنا فكل من في كوتاييس يعرفني.. وكل من في تفليس يخدمني. هل فهمت؟ لا تعارض مشيئتي.. ولا تعاند إرادتي! ستكون لي خادماً وسأجعلك راضياً.. وسأدفع لك ما قدّمت إليّ أضعافاً عشرة.

بل أنا أسألك: ماذا قدّمت إليّ؟ كان مستحيلاً عليك أن تعمل غير ما عملت، لأنك تعلم أن الله يأمر أن يعين الإنسان أخاه الإنسان من دون انتظار لثواب ولا خشية من عقاب مع ذلك فسوف أدفع لك ما أسلفتنيه فلِمَ تعذّبني؟ ولِمَ تزعم أنك تريد أن تهديني؟ ولِمَ تخيفني؟ إنك تريد أن أكون مثلك وهذا ما لا يجوز وليس لك حق في أن تهبط بي إلى مستواك ومستوى أمثالك.. آه.. تفه تفه.

كان يخطب وينفخ ويتنهد وتأملته وقد فغرت فأيّ دهشة وتعجباً. الحق أنه كان يرفع عن كاهله حملاً ثقيلاً من الغضب والنقمة تجمّع وتراكم بعضه فوق بعض خلال رحلتنا فهو ينفثه الآن نفثاً ويلقيه إلقاءً وكان ليزيدني فهماً، ويضع سبابته فوق صدري ويهز بيده كتفي فإذا بلغ مقطعاً هاماً من خطبته ألقى بنفسه عليّ بكل ما فيه من ثقل وغرقنا في المطر وصبّ الرعد جام غضبه فوق رؤوسنا وما يزال شاركو يصرخ بأعلى صوته ليستطيع إسماعي. وأدركت ما في هذا الموقف من مأساة مضحكة فانفجرت ضاحكاً.

وأدار شاركو ظهره إليّ ويصق على الأرض باحتقار.

- 9 -

بدا شاركو منذ ذلك اليوم أكثر انقباضاً. وكان كلّما اقتربنا من تفليس زاد انقباضه واكتئابه، وتغيّر وجهه ولكنه ظلّ صارماً وقبل أن نصل إلى مدينة «بلاد القفقاس» مررنا بمزرعة للجراكسة وانخرطنا نحصد الذرة واشتغلنا يومين عند جماعة لا يتكلّمون الروسية إلا بصعوبةٍ ويضحكون علينا ويشتموننا بلغتهم، وقررنا بعد أن شعرنا بكرههم يتفاقم في قلوبهم أن نرحل، وما كدنا نجتاز عشرة فراسخ حتى أخرج شاركو قطعة من القماش الموصلي كان يخبئها تحت قميصه فنشرها في وجهي وهو يصرخ منتصراً.

– كفانا عملاً وتعباً: سنبيع القطعة ونشتري بثمنها كل ما نحتاج إليه ونصل تفليس ومعنا ما يكفينا، هل فهمت؟

الحق أنني جُنِنْتُ غيظاً وحنقاً فانتزعت من يده قطعة القماش وقذفت بها جانباً وألقيت نظرة إلى وراء.

إن الشراكسة قوم لا يعرفون المزاح.. فمنذ أيام قصّ علينا القوزاق هذه القصة:

حمل متشرّد من مزرعة اشتغل فيها أياماً ملعقة من حديد، ولحق به الشراكسة وفتشوه وعثروا على الملعقة، فلم يفعلوا شيئاً غير أن فتحوا بطن السارق بطعنة من خنجر وطمروا الملعقة في موضع الشق، وعادوا في هدوءٍ

تاركين هذا البائس الذي وجده القوزاق يلفظ أنفاسه، وقصّ عليهم حكايته، ثم مات وهم يحملونه إلى القرية، وألحّ القوزاق على تحذيرنا من الشراكسة، وشفعوا نصائحهم بأقاصيص من هذا النوع لا أستطيع إنكارها.

وذكرت شاركو بما سمعناه، فوقف قليلاً يصغي إلي، وفجأةً وثب عليّ كأنه قط، يكشّر عن أسنانه ويغمض عينيه، ولم ينبس ببنت شفة، وظللنا نتلاكم ونتضارب خمس دقائق في قسوةٍ حتى صرخ شاركو في صوت غاضب:

- كفى.. كفى.

وجلسنا وجهاً لوجه ونحن مرهقان ونظر شاركو في حسرة إلى المكان الذي ألقيت فيه قطعة الموصلي الحمراء وقال:

- وعلامَ تضاربنا؟ آه.. كفى، تلك هي الحماقة.. هل سرقت مالك؟ إذن فلِمَ تغضب؟ لقد سرقت القماش رأفة بك وشفقة عليك. فإنك أنت الذي تشتغل.. أما أنا فلا أستطيع أن أشتغل.. إذن فماذا أصنع؟ أردت أن أساعدك تسي تسي.

وحاولت أن أُفهِمَه ما في السرقة من خزيٍ وعار فصرخ بي في لهجة احتقار:

- اخرس.. إن رأسك أشدّ صلابة من جرثومة الشجرة. ألا تسرق حين تجد نفسك على وشك الهلاك؟ أليس كذلك؟ وهل تعد حياتك هذه حياة؟ آه.. اسكت.

ولم ارغب في استثارته فسكت، وسجّلت له هذه السرقة الجريدة

الثانية بعد سرقته الأولى حين كنا على شاطئ البحر الأسود فسرق ميزاناً صغيراً لبعض الصيادين من اليونان وكدنا نتضارب في ذلك اليوم.

واسترحنا وهدأنا فتصالحنا ثم قال: - هيّا بنا.

وتابعنا طريقنا ووجه شاركو يزداد تجهّماً، ونظراته فيها غرابة وتلوّن، وبينما نحن نجتاز عقبة داريـال ونهبط وادي جوداؤور قال لي:

- نحن في تفليس بعد يوم أو يومين.. تسي تسي، وسكت، ثم قال:

- سأصل إلى البيت «أين كنت؟» «سافرت»، وسأذهب إلى الحمام وسآكل كثيراً وكثيراً. سأقول لوالدتي «يا أماه أنا جائع» وسأقول لوالدي: «يا أبتاه عفوك عني، لقد ذقت طعم الشقاء وخبرت الأمور ومارستها، وعرفت أن الحفاة شياطين طيبون» وإذا ما لقيت واحداً منهم أعطيته روبلاً وذهبت به إلى الخمّارة وقلت له: «اشرب.. اشرب لقد كنت أنا أيضاً متشرداً مثلك» وسأحدث أبي عنك «انظر إلى هذا الرجل يا أبتاه. لقد كان لي أخاً كبيراً ألقى عليّ كثيراً من دروس الأخلاق. ولقد ضربني هذا الحيوان وأعطاني ما آكل والآن جاء دورك في إطعامه سنةً كاملة. سنةً كاملة على الأقل».

هل سمعت يا مكسيم؟

كنت سعيداً حين حدثني هذا الحديث الذي تنبض فيه السذاجة والعفوية وزاد سروري أني لا أعرف أحداً في تفليس، والشتاء قريب، وقد بدأ هطول الأمطار.

الحق أن شاركو أوحى إلي بعض الثقة والأمل.

وأسرعنا في سيرنا، هذه مشيط عاصمة ايبريا القديمة.. نحن غداً في

تفليس ورأيت على بعد خمسة فراسخ عاصمة القفقاس محصورةً بين جبلين. ها هنا تنتهي الرحلة، وشعرت شعوراً غامضاً أني سعيد. أما شاركو فلم يعبأ بذلك ولم يكترث له، كان يلقي نظرات بلهاء ويبصق من حين إلى حين كأنه جائع ويعضّ شفتيه ألماً، ويمسك بطنه بيديه. لقد أسرف في أكل الجزر.

- أتظن أني، وأنا الأمير الكرجي، سأدخل المدينة في وضح النهار أشعث أغبر ممزّق الثياب، كلا.. سننتظر مغرب الشمس فلنقف.

واسترحنا في ظل حائط لبيت مهجور، ولففنا لفافة أخيرة وجعلنا ندخن ونقرقف من البرد. كانت الريح شديدة عاصفة تجتاح طريق جرجيا الحربية. وجلس شاركو يترنم بلحن حزين.. وجلست أحلم بغرفة دافئة، وفراش وثير وبنعم أخرى وافرة بعد هذه الحياة المتشردة الشقيّة.

ونهض شاركو في عزم وقال: هيا بنا.

كان النهار قد انقضى، وسطعت الأنوار في المدينة.. فكان منظرها رائعاً. الأنوار تنبثق من خلال الظلام نوراً بعد نور فتضيء الوادي المظلم والمدينة المختبئة في حضن الوادي.

- أصغ إلي.. هات قناعك أستر به وجهي فلا يعرفني أصدقائي..

واعطيته قناعي، وبلغنا شارع (اولجنسكايا) وشاركو يصفر هادئاً مطمئناً ثم قال: - يا مكسيم! أترى هنالك موقف الحافلات عند الجسر؟ أذهب وانتظرني قليلاً. انتظرني! أرجوك! سأذهب إلى منزل قريب اسأل صديقاً لي عن أهلي، عن أبي وأمي.

- أتغيب كثيراً؟

- دقيقةً واحدةً أنا راجع.

ومضى في درب ضيق قاتم وتوارى فيه.. ولكن إلى الأبد كان هذا آخر العهد به. نعم إني لم أرَ بعد ذلك وجه هذا المخلوق الذي كان رفيقي طوال أربعة أشهر من حياتي. ومع ذلك فما أزال إذا ذكرته وفكرت به أذكره في غير ما حقد ولا موجودة، بل في بهجةٍ وسرور.

لقد تعلمت منه أموراً كثيرةً لا أستطيع أنْ أتعلمها في الكتب الكبيرة التي كتبها الحكماء ذلك ان فلسفة الحياة كانت وما تزال أكثرَ عمقاً وأوفر سعةً من فلسفة الناس.

لانكـا

تمددا على ضفة النهر ينتظران القارب ويتطلعان صامتين على أمواج نهر الكوبان السريعة العكرة تتلاطم تحت أقدامهما. أمـا لانكـا فكـان يغفـو ويستقيظ حيناً بعد حين، وأما جده أرخيب فكان يبحث عن النوم، والنـوم يفر منه، وقد بلغ ألمه حداً يمزق صدره.

وبدا وجهاهما فوق تراب الأرض شيئين يستحقان الرحمة والـشفقة، ويبعثان الاشمئزاز والنفور في وقت واحد، أحـدهما كبـير وثـانيهما صـغير وكلاهما أغبر لونهما التعب والحر لو الخرق البالية التي يرتديانها.

استلقى الجد أرخيب، وهو ناحل طويل، فـوق عـصابة ضـيّقة مـن الرمل تمتدّ على ضفة النهر كأنها شريـط أحمـر، وكـوّم لانكـا، وهـو صـغير ضعيف، نفسه كالكرة، ويُخيَّل إليك وأنت تراهما هكذا، أنـك تـرى غـصناً غضاً قُطِعَ عن شجرة عجوز وقد ألقت بهما الأمواج على الرمال.

ورفع الجد رأسه ونظر إلى الـسهل في ضـفة النهـر الأخـرى وقـد غمرته الشمس وحف به القصب وتناثرت خلالـه القـوارب، كـل شيء محزن ممل. والطريق شريط أغبر يمتد ثـم يـضيع، وعينـا الجـد الحزينتـان تطرقان مفعمتين بالضجر تحت حاجبين أحمرين منتفخين. وسحنته كتاب تقرأ فيه صفحات من الحزن والأسى، وسعل ورفع يده يسدّ فمـه ونظـر

إلى حفيده قلقاً. كانت سعلته جافة ممزّقة.. كان عليه أن يقوم.. وانحدرت الدموع من مقلتيه.

الصمت الرهيب يغمر الصحراء الملتهبة بحر الشمس، ولا يعكّر صفوه غير حفيف الأمواج الحريري، والحقول تمتد على ضفتي النهر، هناك في الأفق الذي لا تكاد تراه عينا العجوز المتعبتان تموج محيط القمح الذهبي في لمعان السماء الصافية وهناك غير بعيد نخلات ثلاث يضفين ظلالهنّ الشاحبة على الأرض. ويتغيّرن حيناً بعد حين، فهن كبيرات مرةً وصغيرات مرات أخرى.. وهاك أخيراً تبدو السماء وحقول القمح وكأنهما يتّحدان في حركة اهتزازية عريضة.

وفجأةً توارى هذا كلّه وقد غمره سراب الصحراء الجارف فكأنما هو حجاب شفاف صقيل جاءت ثناياه من حواشي الأفق وتمشت مع ضفاف النهر، أو كأنما هو نهر آخر هبط من السماء صفاء يحمل قليلاً من الرطوبة إلى الصحراء التي تفور وتغلي كالمرجل.

وأخيراً اختفى كل شيء.

هذا مشهد لا يعرفه الجد ارخيب في مسقط رأسه في روسيا، قاده إليه اليوم جوعه، وفرك عينيه وخُيّل إليه أن حرارة هذه الصحراء ستعميه بعد أن حطمت ساقيه، وهو الذي كان يقطع في بلده أمس 30 فرسخاً في اليوم الواحد فأصبح لا يكاد يقطع نصف هذه المسافة اليوم.

بل إنه يشعر اليوم أنه مريض وأنه ينهار وإن نهايته قريبة، وعلى الرغم من أن الموت لا يخيفه، وعلى الرغم من أنه يعتبره وظيفة عاديّة من وظائف الطبيعة على الرغم من ذلك كلّه فقد تمنى أن يموت في الأرض

التي وُلِدَ فيها هناك في أوريل. ثم أن مصير حفيده يرهقه ويعذبه. ماذا سيغدو لاتكا إذا مات جده العجوز؟

كان كلما سأل نفسه هذا السؤال وهو سؤال يردّده مراراً كثيرةً في اليوم الواحد. يشعر بشيءٍ يعصر نفسه عصراً وبقشعريرة تهزّ جسده هزاً. وبضيق شديد وألم حاد يريد حين يعانيهما لو عاد حالاً إلى روسيا. ولكنه يتذكر القرم وسهولها المجدبة وفلاحيها الحمقى، وكلابهم الكبيرة العقور، والتتر الغلاظ القلوب، ومغامرة أخرى مرت به في تامان كادت تُلقي به وبحفيده في غياهب السجون.

ليته يعود إلى روسيا.. ولكن! هذا أمل لن يبلغه فالموت مدركه وهو في طريقه إليها. إن الكوبان على الأقل يجود عليه ويتصدق. نعم إن أهله ساخرون قساة ولكنهم أغنياء، إنهم يعطون المتشردين قبل السؤال. وربما استطاع أن يجد للاتكا عملاً.. ثم أن الطفل ليس هنا أكثر يتماً منه هناك في مسقط رأسه.

ونظر إلى حفيده وعيناه مغروقتان بالدموع، ولمس شعره بيده المتحجرة.

رفع الطفل وجهه الصغير إلى جده، وبدا أنفه الدقيق وشفتاه الرقيقتان الصفراوان وقد شققتهما رياح الصحراء، وعيناه الزرقاوان الواسعتان تزدادان سِعَةً في هذا الوجه الأمرد الذي تعلوه نكت من جدري الماء.

وسأل الطفل: - متى يأتي الزروق؟

وغطى عينه بيده وأحد النظر فرأى النهر يلمع في نور الشمس لمعاناً

يخطف الأبصار.. وسكت قليلاً ثم أجاب على سؤاله: - كلا.. إنه لا يتحرك. ولم يأتي؟

وقال ارخيب في رفق ولين: - لم يدعه أحد ولذلك ظلّ ساكناً، هل نمت؟

وظل يداعب رأس حفيده، وحرك لانكا رأسه حركةً غامضةً وعاد فاستلقى على الرمل وامتدّ الصمت دقائق، ثم قال وعيناه تحدّقان في النهر:

- لو كنت أعرف السباحة لسبحت. إن مجراه سريع جداً، وليس عندنا نهر مثله. ولمَ يسرع هذه السرعة؟ كأنما هو يخشى ألا يتأخر عن موعد مضروب.

كان صوته قاسياً رتيباً إلى حد بعيد ثم ردّ عينه عن النهر غاضبا.

وتريث الشيخ قليلاً وقال: - هناك طريقة. لنحل حزامينا ولنصلهما ثم اربط بطرف منها رجلك وأمسك الطرف الثاني، وعندئذ تستطيع أن تبترد في النهر.

- تلك طريقة لا تفيد. النهر سريع وقد يجرك معي فنغرق.

- أما هنا على الشاطئ فلا، أما هناك في وسطه فنعم. ما أسرع مجراه إنه يفيض في الربيع ولا شكّ.. مروج وسهول لا حد لها.

وكأن لانكا تعب من الكلام فلم يرد على جده. وأمسك بقبضة من الطين ثم ضغط عليها بأصابعه فتفتت. والجد يراه ويغرف في أفكاره.

وقال لانكا وهو ينفض التراب في رفق وصوت رتيب:

- غريب. كتلة من الطين أمسكت بها ثم سحقتها فاستحالت إلى ذرات من التراب لا تكاد تُرَى.

– وماذا في ذلك من غرابة؟ وأيّ غرابة في هذا؟

وجعل يسعل ويرئ من خلال الدموع عيني ولده. تبرقـان في وجـه جاف نحيل. وسكت عنه السعال، فأعاد سؤاله: – ماذا ترئ من غرابة؟

– من غرابة. نعم إني...

وأشار الطفل إلى شاطئ النهر وقال: كم من منـزل بُنِيَ هنـاك علىٰ ضفة هذا النهر؟ وكم من مدن قطعناها؟ في كل مكان ناس.

وخانته فكرته فتوارت... وعاد إلى تأمّله وعيناه غارقتان في الفراغ.

وحنا الجد على الحفيد، بعد صمت قصير، وقال له في رفق:

– إنك حكيم، وإنك لتنطـق بـالحق.. كـل مـا عـلى الـترب تـراب: المدن.. والبشر ونحن.. كلنا تراب.. آه يا لانكا يـا لانكـاي الحبيـب!.. لـو كنت تعرف القراءة والكتابة لشققت طريقك. إنك لتفكـر تفكـير الـشيوخ المجرمين يا عصفوري، يـا شـحروري، مـا هـو مـصيرك؟ مـاذا سـتكون؟ وصرخ لانكا في حرارة وهـو ينقـذ شـعره الكتّـاني مـن بـين أصـابع جـده المرتجفة:

– دعني. ماذا تقول؟ أتدّعي أن المدن وما يحيط بها تراب في تراب.

– تلك مشيئة الله يا حمـامتي.. كلّنـا مـن تـراب وإلى الـتراب نعـود. وليس الأرض إلا تراباً.. وإذا كان الله قد قدّر ذلك فعلى الإنسان أن يعـيش عيشة العمل والسذاجة. وسأموت عمّا قليل فماذا يحل بك؟

طالما سمع لانكا هذه الجملة وطالما هزّته وأوحت إليه بفكرة الموت، فأدار رأسه وقطـع حشيـشة وجعـل يقـضمها بأسـنانه في بـطء. كـان هـذا الموضوع حديث الشيخ الدائم. إنه الجرح الذي لا يزال يقطر دماً.

- ولِمَ لا تجيب؟ وما عساك تفعل؟ ماذا ستصنع إذا مت؟

- ولكن طالما أجبتك.

ونظر لانكا إلى الشيخ نظرة شزراء ملولاً هذا لون من الحديث لا يرضيه ولا يسره، إنه ينتهي دائماً إلى نزاع: وما أكثر ما أندفع الجدُّ في أحاديث عن موته القريب، وما أكثر ما أصغى إليه لانكا بادئ الأمر وأشفق عليه وخاف من مستقبله الذي ينتظره وبكى.. ولكن هذا الحديث أصبح معاداً مكروراً وجعل يُرْهِقه ويضنيه.. ثم لم يصغ إليه، بل كان يمضي هائماً في أفكاره.. ورأى الجد ذلك فغضب وكم قال له (أيها الغبي إنك تنكر ما أحمل في سبيلك من عبءٍ وجهد)، بل لقد اتهم لانكا مرة أنه يريد له الموت العاجل.

- ماذا تقول أيها الأحمق الصغير؟ أنت لا تفهم الحياة ولا تستطيع فهمها. وما عمرك؟! أحدى عشرة سنة.. أنت عود غض طري، لا تستطيع العمل ولا تعرف أين تذهب أتنتظر أن يهبط عليك من السماء من يحميك ويساعدك؟ لو كنت ذا مال لوجدت الصديق الذي هو على استعداد لتبذيره وتبديده معك. أما التسوّل فأمر غير لذيذ حتى على من كان عجوزاً متهدماً مثلي: تحني رأسك لكل من يمر وترجو رحمته وتستمطر شفقته، والناس يشتمونك حيناً، ويضربونك حيناً ويطردونك أحياناً. اتعتقد أنهم يرون المتسوّل إنساناً مثلهم؟! كلا عرفت هذا طول سنوات عشر قضيتها متشرّداً في كل مكان، كسرة الخبز الحقيرة التي يتصدّقون بها عليك يعدونها أثمن من ألف روبل. والصدقة النحيلة التي يقذفون بها إليك يظنون أن قد وجب أن تفتح لهم أبواب الجنة، وهل

تعرف لماذا يتصدق الناس؟ كلا! إنهم لا يتصدقون طائعين مختارين أيها الصديق ولكنهم يحاولون بالصدقة تخفيف ما على وجدانهم وضمائرهم من أعباءٍ وأثقال. إنهم حين يعطونك كسرة خبز يشعرون أنهم عندئذٍ يستطيعون من غير ما حياءٍ ولا خجل من أنفسهم، أن يأكلوا ما طاب لهم في هدوءٍ وراحة بال، الرجل الشبعان حيوان غير قادر على الشفقة والإحسان على الإنسان الجائع، وهو أيضاً غير قادر على فهم آلام أخيه الإنسان الجائع. الشبعان والجوعان عدوان، كل منهما سدّ يقف في وجه الآخر، ومستحيل أن يتراحما أو يتفاهما. والمتسول في عين الشبعان حمأة طين يتعثّر بها في طريقه فليقذفها قذفاً.

وتملّك الغضب والحزن الجد، واختلجت شفتاه، وتقلّبت عيناه في محجريها الأحمرين، وازدادت تجاعيد وجهه المجعد عمقاً وقسوة، وما كان لانكا يحبّ أن يرى جده في مثل هذا الحال، إنه عندئذٍ يخيفه ويرعبه.

– أفهمت لماذا اسألك: ماذا تفعل إذا مت؟ إنك طفل نحيف، والعالم من حولك عفريت مارد، لست عنده أكثر من لقمةٍ سائغةٍ، وذلك ما لا أريد أن أكون. أحبّك يا ولدي، ليس لك غيري، أيحقّ لي أن أموت؟ أنا لا استطيع أن أمضي وأتركك وحيداً، فإلى من تلجأ؟ وعلى من تعتمد؟ ولكن لماذا تصرف عني أنظارك؟ يا ربّاه؟! الحياة ترهقني. ومع ذلك لا أريد أن أموت حرصاً على هذا الطفل.. فواجبي أن أدافع عنه وأحميه. طالما هدهدته يداي الهرمتان منذ سبع سنوات. اللهم عونك ورحمتك.

وجلس الأب ثم جعل يبكي ورأسه بين ركبتيه المرتجفتين وتصاعدت زفراته فهزت كتفيه.

والنهر ذو المجرى السريع يهرب نحو الأفق، ويقفز على السدود، وكأنه يريد أن يخنق بصوته الجهوري دموع الشيخ ونشيجه، والشمس في السماء صافيةٌ لامعة، في ضوئها مرح ساخر، والنسمة الناعمة تكفكف من تمتمة الأمواج المضطربة.

وقال لانكا في قسوة:

– آه.. كفاك أنيناً ونحيباً يا جدي..

واقترب من العجوز غاضباً وقال: طالما سمعنا هذا فسئمناه. لن أضيع.. لن أضيع.. سأعمل في مطعم من المطاعم.

وأن الجد ويكي وقال: سيشبعونك ضرباً ولطماً.

واحتدّ لانكا وأجاب: – هذا ممكن ويمكن كذلك أن يقتلوني، وسأمضي في طريقي، وأشقه، وأنقذ نفسي وسكت فجأةً وفكر قليلاً ثم قال في صوت خافت:

– وسأدخل الدير إذا اضطررت.

وتنهد الجد الذي أعادت إليه هذه الفكرة روحه وقال: إذا استطعت..

وعادت إليه موجة من سعال أصم هزّت أركانه هزاً.

ودوى فوق رأسيهما صرير عجلةٍ، ومزق الهواء صوت عنيف يقول: القارب.. القارب! وارتجف المتسولان ووقفا وأمسكا بكيسيهما وعصويهما، وتقدمت العجلة ذات الدولابين تغوص في الرمال وتصعد

وفيها قوزاقي يرد رأسه إلى وراء، وهم أن يعيد نداءه، وهو يستنشق الهواء ويفتح فمه، ويرفع صدره، وأسنانه البيض تلمع في ثنايا لحيته السوداء الحريرية والدم يملأ عينيه، وتسرح العين من خلال قميصه المتموّج ومعطفه الذي يلقيه في إهمال فوق كتفيه في صدر يغطيه الشعر وتحرقه الشمس، ويتصاعد من كيانه كلّه تعبير كامل من الصحة والقوة والعنفوان، ويُخِيلُ إليك وأنت تراه أنه فرس من خيول السابق المتينة، أو أنه أحد هذه الدواليب التي يطوقها الحديد في عجلته وصرخ: هيّا هيّا.

وهرع إليه الجد وحفيده فخلعا قبعتيهما وانحنيا انحناءً عميقاً، وأهاب بهما القادم الجديد: أهلاً وسهلاً.

ثم نظر إلى ضفة النهر الثانية فإذا القارب يتقدم في هدوء، والتفت إلى المتشردين وسألهما:

– هل جئتما من روسيا؟

وأجابه ارخيب وهو يجيبه: – نعم أيها المحسن الكريم. وقال وهو يقفز من عربته ويربط حصانه:

– الناس جياع هناك، أليس كذلك؟

– حتى الخنافس تموت هنالك من الجوع.

– الخنافس، حتى فتات الخبز لا تملكونه إنكم تستطيعون أن تأكلوا، أما أن تعملوا فلا، إن المجاعة لا تنزل يمن يعمل.

آه أيها المحسن، أرضنا سبب شقائنا إنها تأبى أن تنتج شيئاً، فطالما امتصوها حتى استنفذوها.

وحرّك القوزاقي رأسه:

الأرض؟! إنها يجب أن تنتج في استمرار، وهي لهذا كانت، وليست أرضكم هي ما عندكم من سيء ورديء، ولكن السيء أيديكم، فالأيدي الماهرة تستطيع أن تستنبت الصخر، هل زرت شواطئ البحر الأسود الجنوبية؟ إنهم هناك يفلحون الصخر أيها الجد.

واقترب القارب، وقفز منه إلى الرصيف قوزاقيان قويّان وجهاهما قرمزيان، وبلغا الشاطئ فتنفّسا وقال صاحب العجلة: الحر شديد.

ورفع يده إلى قبعته وهو يجر عجلته إلى القارب، وقال أحد البحارين:

– نعم.. نعم..

ثم وضع يديه في جيبي سرواله واقترب من العجلة ففحصها وهو يتنشق الهواء ملء رئتيه، وظل البحار الثاني جالساً على الأرض وهو يئن. وخلع حذاءه وركب الجد وحفيده القارب وجعلا ينظران إلى القوزاق، وقال صاحب العجلة: – هيّا..!..

وسأله الرجل الذي يفحص العجلة:

– أما عندك ما تشرب؟!

واستطاع ذلك الذي كان يرهقه حذاؤه أن يخلعه ونظر إلى كعبه.

– لا!.. ولِمَ هذا السؤال؟ ألا يكفيك ماء الكوبان.

– ماء.. لكن هل أسألك ماء؟

– آه إذن فأنت تطلب خمراً؟ لا! ليس عندي خمر.. وقال النوتي في حزن:

- ولِمَ لا خمرة عندك؟!

وعلقت عيناه بالقارب وقال: - هيا.

وقام القوزاقي الآخر بمشروع إعادة لبس حذائه، وبصق الأول في راحة كفيه وأمسك بالحبل وأعانه صاحب العجلة وقال صاحب الخمر لارخيب:

- ألا تستطيع يا جداه مساعدتنا؟

وحرك ارخيب رأسه حزيناً قائلاً:

لقد بلغت العمر عتياً، ووهن عظمي وأنهى القوزاقي الآخر نزاعه لحذائه وقال لصاحبه:

- ولِمَ تطلب مساعدته؟

وأراد أن يؤكد للعجوز صواب نظريته فتمدد في القارب، وكال له رفيقه كيلاً من الشتائم فلما رآه أصم لا يرد جعل يرقص ويقفز.

وتمتم ارخيب في أذن لانكا: - أرأيت هؤلاء الناس يا لانكا؟ ما أسمنهم، وما أكثر شعبهم! إن هذه البلاد جنّة سعيدة.

وظل لانكا ينظر إلى الماء الجاري ودمدم الجد في صوت خافت:

ياله من خنزير، يزعم أن أيدينا هي الرديئة لا أرضنا وهل يعرف معنى العمل؟ آه لماذا يعطي الله قليلاً من الناس الكثير ويحرم كثيراً من الناس القليل.

وسكت قليلاً كأنه ينتظر جواب لانكا، فلما لم يجب أجاب هو عن سؤاله:

– إن الله يفعل ذلك ليبلو قلوب الناس، ويختبر نفوسهم، من لا يرضَ بنصيبه من الدنيا يمت ولا يذق طعم السرور والراحة.

وظلّ لانكا يحدق في الأمواج وشعر أنه رأسه يدور وكلّت عيناه من النظر إلى مجرى الماء السريع فأغمضهما، وأما همسات الأب في أذنيه، وأما صرير المجاذيف، وأما أصوات الماء الذي يقفز قفزاً، أما كل ذلك فكان يغوص به في إغفاءته، وأراد وقد أخذته سنة من النوم أن يستلقي ويتمدد، ولكن مصادفةً فجائيةً أفقدته توازنه فوقع وفتح عينيه وأجال نظراته وإذا بالقوزاق يضحكون وقد رسا قاربهم على الشاطئ وربطوه بجذع شجرة محترقة.

وقال القوزاقي صاحب العجلة:

– لقد نمت وأنت مرهق، هيا إلى العجلة وسأحملكما إلى القرية. وأنت أيها الجد تعال إلى جانبي.

وشكر الجد القوزاقي بصوت متهدّج وتسلّق العجلة وهو يئنّ، وركبها لانكا ومضت العجلة في خلال غيمة من الغبار الناعم الأسود وجعل الجد يسعل سعالاً لا ينقطع.

وشرع القوزاقي يغني أغنيةً غريبةً مقطّعةً تنتهي بصفير ثم غنى أغنية أخرى لا وزن لها ثم قطعها فجأةً وغنى أغنية ثالثةً في صوت حاد عال وهو يكبكب الأصوات كما تُكَبْكِبُ المرأة شلّةً من الخيطان، فإذا وصل إلى لازمة قطعها في عنف. إن بين هذه الأغاني وبين ذلك السهل الواسع الذي تزينه هنا وهناك قطع بيض من السراب تتموج في الهواء. إن بينهما انسجاماً عجيباً.

الـدواليب تـصرّ صريـراً شـاكياً منتحباً. وعواصـف الغبـار تـشتد وتتطاير والجد يحرك رأسه ويسعل دون انقطاع ولانكا يتخيّـل أنـه سيـصل عما قريب إلى القرية القوزاقية وسينطلق عما قريب في شوارعها لـيردد تلـك الأغنية التقليدية للمتسولين: (أيّها الرب المسيح).

وسيهزأ به أطفال القرية وسترهقه نساؤها بالـسؤال عـن روسـيا ومجاعتها، كان يتخيل هذا كلّه وسعال الأب يزداد حـدةً وعنفـاً ورأسه يزداد انحناء، وزفراتـه تتـواتر وتطـرد، ولانكـا يتـذكر مـا سـيقصّ مـن مغامرات.

سيحدث الناس عن المجاعـة في روسـيا. هـذه المجاعـة التـي تبتلـع الناس ابتلاعاً، إنهم يتساقطون في الشوارع وفي الـدوروب مـوتى، ويبقـون كذلـك أياماً طويلة ولا يفكر الناس بدفن هؤلاء الأموات! نعـم إن ذلـك لم يحدث فعلاً ومع ذلـك فينبغي أن يقال هذا وأن يقال غيره من ألوان الهـذيان لتكون الصدقة أوفر كميّةً وأسهل منالاً. ومع ذلـك فـماذا تفيـد الـصدقة في هذه الديار؟ وفي غيرها يمكن أن يباع كيل الحبّ بأربعين أو خمسين كوبكـا، أما هنا فليس من أحد يـشتريها منـك بقليـل ولا بكثـير، بـل إن المتـسولين أنفسهم يضطرون أحياناً إلى رمي قطع طيبة من الخبز. إذن فلماذا يسرع الجد طافراً من قريةٍ إلى قرية؟! يـستطيع أن يمكـث في القريـة الواحـدة أسـبوعاً كاملاً، ولكنه لا يفعل ذلك، بل هو لا يكاد يبلغ القرية ويدور فيهـا ويأخـذ منها أكثر ما يستطيع حتى يـسرع إلى النجـاة منهـا كـأنما هـو لـص تطـارده القوانين.

وسأله مرةً لانكا عن هذا، فقال الشيخ في شيءٍ من الحزن والغضب:

– أنت أبله فاسكت. أنت لا تستطيع أن تفهم ما أعانيه من أجلك. وأنت لا تستطيع أن تعرف ما أرمي إليه، أنا أبحث عن سعادتك وعسى أن أنقذك من حياة الفلاحين الأشقياء، فاسكت.

وسألهما القوزاقي وهو يرى شكلهما المزري: أتتسولان.

وتنهد الجد وقال: – نعم أيها المحسن الكريم.

– قم أيها الجد. سأدلك على منزلي وإذا شئت نمت فيه.

وأجهد الشيخ نفسه حتى انتصب واقفاً، ولكنه عاد فوقع وأصاب جانب العجلة مرفقه فصرخ صرخة ألم، وقال له القوزاقي في رفق: اجلس أيها الجد.. إذا احتجت إلى ملجأ فاسأل عنّي عن تشيرني: أندره تشيرني. والآن انزل.. وإلى اللقاء.

وقف لانكا وجده عند نخيلات تلوح من خلالها سقوف البيوت المصنوعة من ألواح الخشب، وتمتدُّ من الجانبين يميناً وشمالاً صفوف من النخيل يعلو أوراقها غبار دقيق أسمر وقد لفحت الحرارة قشرتها السميكة ففصلتها عن جذوعها القوية المستقيمة، وانفتح أمام المتشردين زقاق ضيق على جانبيه سياجات من خشب مضى في القوزاقي فمشيا وراءه مشيةً متعبةً مشية من اهترأت حياتهم في ذرع الأرض ذهاباً وإياباً.

وسأل الجد حفيده:

ماذا نفعل يا لانكا؟ أنمشي سويّة. أم يمضي كل منّا في طريق؟

وتابع من دون أن ينتظر الجواب:

– خير لنا أن نسير معاً، فالناس لا يعطونك إلا القليل، وأنت لا تتقن التسول.

وأجاب لانكا في اشمئزاز: وما نصنع بالكثير إذا أعطانا الناس الكثير؟ أنستطيع أن نأكله كله؟

- ماذا نصنع به أيها الأبله؟ قد نجد من يشتريه. والدراهم شيءٌ غال وثمين. وسوف تستطيع بها بعد موتي تدبير أمورك.

ولمس الجد بيده رأس الطفل وهو يبتسم ابتسامة طيبة:

- أتعرف كم جمعت في رحلتنا الأخيرة؟

وسأل لانكا في غير اكتراث: - كم جمعت؟

- أحد عشر روبلاً ونصف روبل. أليس هذا عظيماً حقاً؟

ولكن عدد الروبلات وفرح الجد لم ينتزعا الطفل من أحضان آلامه، ورأى الشيخ ذلك فتنهد وقال: يا لك من طفل! طفل صغير لا يفهم، إذن فأنت ترى أن يمضي كل منا في طريق.

- طيب.

ومشى الجد في زقاق عن شمالي الطريق ومضى لانكا فيها، ولم يكد يقطع عشر خطوات حتى رنّ في أذنه صوت محطم:

- من مال الله يا محسنين.. من مال الله..

ذلك عبث يد بأوتار عود، غير موزون، وارتجف لانكا وأسرع في خطاه. إن زفرات جده توقظ في نفسه دائماً شعوراً مريراً مؤلماً. وإن نحيبه إذا لم يجد عليه المسئول بصدقة يُشْعِرهُ أن كل شجاعته انهارت وأنه أصبح جباناً رعديداً.

وصوت الجد ما يزال يبلغه في أنغام متكسرةٍ مرتجفةٍ، يحمله إليه

الهواء الثقيل الناعس من أزقة القرية، الهادئة كأنها في ليل ومشى لانكا في ظلّ شجرة كرز تتدلى أغصانها على الأرض. والنحل يطنّ حوليها.

وخلع جرابه عن عاتقه، وأسند إليه رأسه ونظر إلى السماء من فروج الأوراق التي تستر وجهه، واستغرق في نوم عميق وقد حجبته عن عيون المارة الأعشاب الكثيفة وظلال السياج.

وأيقظه من نومه صوت غريب يقلق الهواء، هناك من يبكي. إنه نحيب طفل يائس وزفرات تهدأ ثم تعود أكثرَ قوّةً وأكثرَ قرباً، ورفع رأسه ونظر إلى الطريق من خلال الأغصان.

ورأى طفلةً جميلةً لا تتجاوز سبع سنوات، تلبس ثياباً نظيفةً، وقد احمرَّ وجهها وابتل بالدموع وكانت تمسح عبراتها حيناً بعد حين بذيل ثوبها الحريري، ومضت في طريقها في بطءٍ تجر رجليها جراً وتثير من ورائها سحابة من غبار، هي لا تعرف ولا شكّ أين تمضي ولا لماذا تمشي! وفي عينيها السوداوين النديّتين تقرأ صفحةً من صفحات الحزن العصبي، وأطلّت أذناها الصغيرتان الموردتان في غنج ودلال من خلال شعرها الكستنائي الذي تتدلى غدائره على جبينها وخدّيها وكتفيها، وعلى الرغم من دموعها فقد وجدها لانكا لعوباً لطيفةً مسليةً، أنها ولا شك عنيدة.

وقال لها وقد اقتربت منه فهب واقفاً: - لماذا تبكين؟

وانتفضت ثم وقفت وقطعت بكاءها العالي واستمرت تنشج في صمت ورقة لحظات ثم اختلجت شفتاها من جديد؟ وتبدلت هي تبدلاً مضحكاً، ورفع النشيج صدرها وخفضه، ثم مضت في طريقها وهي تبكي

بكاءً عالياً. وشعر لانكا أن شيئاً ما يزدحم في صـدره وعـزم عـلى اتباعهـا، وقال لها قبل أن يدركها:

- لا تبكي.. ألا تستحين من البكاء وأنت كبيرة؟

ولما أدركها أمعن النظر في ملامحها ثم هز كتفيه وقال لها في اعتزاز:

- وماذا يبكيك؟

وقالت في صوت يتمطى: آه.. لو فعلوا بك ما فعلوا بي.

وقعت في الطريق في قلب الغبار، ثم سترت وجهها بكفيها وجعلت تبكي بكاء يائساً. وبدرت من لانكا بادرة احتقار وازدراء.

- آه لست إلا امرأة.. نعم امرأة وكفى. هذا كل شيء.

ولكـن هـذا التـصريح الخطـر لم يحمـل لهـا عـزاءً ولا دواءً وظلّـت العبرات تنهمر عبرة عبرة من فروج أصابع الطفلـة المـوردة، فأحزنـه ذلـك وأوحى إليه رغبةً جامحةً في أن يبكي هو كذلك معهـا ومـال إليهـا يـداعب شعراتها في رفق وسحب فجأةً يده وقد أحس بالخوف من جرأتـه وتماديـه. وظلّت هي تبكي ولا تنبس بكلمة وعاد لانكا يقول لها وهو يرغـب في مـد يد المعونة إليها:

- اسمعي. قولي لي لماذا تبكين؟ هل ضربوك؟ هل تشتكين؟ قـولي لي أرجوك وسأساعدك وسوف ترين، عل أضعت شيئاً؟ سأفتّش عنه معك.

وهزّت البنت رأسها وقالت وهـي تنتحـب ولا ترفـع عـن وجههـا كفيها:

- أضعـت عقداً، جـاء بـه أبي مـن المعـرض، فيـه حبـات زرق ذات أزهار، أضعت عقدي.. أضعت عقدي.

وعادت تبكي بكاءً أشدّ مرارةً وتقطع نحيبها ألفاظ مختنقة:

أوف.. أوف.. أوف.

وأدرك لانكا أنه لا يستطيع إلى تعزيتها سبيلاً فاعتزل جانباً ثم جعل يتأمل السماء. كان مضطرباً وكان مشفقاً، وأخيراً قال: – لاتبكي.. ربما وجدوه.

ورأى أنها لا تهتم به ولا تصغي إليه، فابتعد عنها قليلاً وتصور أنها ستلقى جزاء ما أضاعت ضرباً وإهانة، واستعرض في خاطره هذه الحكاية: الأب القوزاقي الأسود الجبار يضرب هذه الطفلة، البيضاء الجميلة فترتجف وتبكي ثم تتدحرج تحت أقدامه..

وابتعد لانكا خطوات ثم اعتمد على السياج الخشبي وجرّب إيجاد جمل بهيجةٍ رقيقةٍ يخاطبها بها ولكن كل هذه الألوان الطيبة من التعبير ندت هاربةً ولم تخطر له على بال.

– قومي يا صغيرة من عرض الشارع. أرجوك أن تكفّي عن البكاء. عودي إلى بيتك. قصي على أهلك ما حدث لك. قولي لهم أنك أضعت العقد. أتشعرين سلفاً بآلام الضربات التي سينهالون بها عليك؟!

كان صوته رقيقاً مفعماً بالحنان، ورأى في سرور أن الطفلة عندما سمعت جملته الأخيرة الساخرة نهضت من مكانها، وتابع مبتسماً فرحاً:

– مرحى لك. عودي إلى بيتك. أتريدين أن أرافقك أون أقص على والديك أمرك؟ سأعرف كيف أدافع عنك. لا تخافي.

وهزّ لانكا كتفيه في كبرياء وألقى حواليه نظرة انتصار وفخر وأجابت الطفلة وهي تبكي وتنفض الغبار عن ثيابها:

- كلا.

وقال لانكا في لهجة رجولية فحلة، وأصلح قبعته فوق أذنيه:

- لو أردت لذهبت معك.

وباعد بين رجليه.. وكانت أسماله تهتز من حولـه، وضرب الأرض بعصاه ورمق الطفلة في عناد ولمعت الجـرأة والكبريـاء في عينيـه الحـزينتين.

ونظرت إليه الطفلة الحذرة، وهي تمسح دموعها وقالت وهي تنتهره:

- لا لا تأت معي فأمي لا تحب الشحاذين.

ثم مضت والتفتت مرتين لتراه.

تغيرت الدنيا في عيني لانكـا: أحـسّ بالخيبـة المـرّةِ تـسري في نفـسه وتتمطىٰ وشعر باندفاعه وجرأته يهويان إلىٰ الحـضيض درجـات درجـات، وإذا به ينحني ويطأطئ هامته من جديد، وإذا به يـستعيد سـحنته المجهـدة المعبرة، وإذا به يلقي علىٰ كتفيه جرابه الذي كان يمسكه بيده، وعـلىٰ الـرغم من ذلك أهاب بالطفلة التي كـادت تتـوارىٰ عـن أنظـاره في منعطـف مـن الطريق:

- مع السلامة

وتلفّتت الطفلة مرةً أخيرةً ثم غابت.

وبدا كل ما حول لانكا كئيباً أسود. وهبط المساء وتصاعدت حـرارة ثقيلة تنذر بعاصفة هائلة تتمخّض في الجو، ولوّنت الشمس الراحلة سـعف النخيل بأشعةٍ قرمزيةٍ، وهبت ظلال الليـل تكتـسح الأغـصان والاشـجار الكبيرة التي تزداد كبراً وضخامةً في الليل. وخُيِّلَ إلىٰ لانكا أنه اكتنـه فكـرة تختلج في أعماقهـا، أنهـا تترقـب أمـراً مخيفـاً، سيحل بـالأرض عـمّا قريـب

وأرسلت الشمس آخر أشعتها فلامست ذرى الأشجار ثم غشيتها غاشية قاتمة غائمة وغطست في أعمق أعماق الأرض، وهناك أصوات تعلو، ومغنٍ يغني وأنغام شجية تضطرب وكأنها مثل هذا الجو الذي تعيش فيه يسحقها الغيظ سحقاً.

وتملّكت لانكا كآبةٌ غير واضحة، وخوف غير معروف، وأحس برغبة مفاجئة تدفعه إلى العودة إلى جده فأسرع الخطا غير شاعر برغبته في التسوّل، مشى وكان قلبه يقفز من صدره، وأتعبه أن يمشي وأن يفكر في وقت واحد، وظلّت ذكرى الطفلة تلاحقه وترهق أفكاره.

هل هي غنية؟ لو كان أهلها أغنياء كانت معذبة مرهقة بالضرب، فالأغنياء بخلاء. هل هي فقيرة؟ لو كان أهلها فقراء لم يضربوها، فالأطفال في بيوت الفقراء أقرب إلى التمتع بحب الآباء وحنانهم من أبناء الأغنياء، ذلك لأنهم هم الذين يعولون عليهم في كسب خبز المستقبل.

تلك هي الأفكار التي استعرضها فزادت شعوره بالحزن والأسى وظنّ أنها ليل يزداد قتاماً وكثافةً حيناً بعد حين.

وازداد الغروب بلبلة وارتباكاً والهواء حرارة وقيظاً ومر ببلانكا كثير من القوزاق ترافقهم نساؤهم وبناتهم، مرّوا به ولم يلقوا عليه نظرةً. فقد ألفوا رؤية هؤلاء المشردين الذين يموتون جوعاً، والذين غزوهم من قلب روسيا، أما هو فقد ألقى عليهم نظرة شزراء أنهم ينبعجون سمناً، ويسيلون نعمةً وبطراً.

أسرع إلى الكنيسة وقد رأى قبّتها تلمع من خلال الأشجار وسمع

رغاء القطعان تعود إلى حظائرها وبدت له الكنيسة صغيرة عريضة، تعلوها قبات خمس زرق يحيط بها النخيل.

وقد سمت ذراه على الصلبان التي تلمع عليها أشعة الشمس الغاربة فتلهبها بنار ذهبية مورّدة.

ها هو ذا جده يدنو من صحن الكنيسة، وقد انحنى ظهره تحت ثقل جرابه، وغطى عينه بيديه يبحث عمّا حواليه ومن ورائه قوزاقي ذو لباس فخم تغور قبعته في جبهته وفي يده هراوة.

وسأل الجد حفيده وقد رآه يسير إليه، وكان يعتمد على درج الكنيسة:

– كيسك فارغ، أليس كذلك؟! أما أنا فانظر...

وزحزح كيسه عن عاتقه وألقاه ثقيلاً ممتلئاً وهو يئن.

– أهل هذا البلد كرام محسنون، ولكن مالك؟

وأجاب لانكا ضعيفاً خائر القوى: – صداع أليم.

واستقرّ على الأرض إلى جانب جده. وأسند الجد ظهره إلى كومة من الأحجار طروبا نهماً يدغدغ صدقاته بيده.

– أنت تعبان؟ سنذهب حالاً لننام، ما اسم القوزاقي الذي جاء بنا إلى هنا؟

– اندره تشيرني.

– نعم تشيرني. سنسأل عنه. هذا رجل قادم إلينا، نعم إن سكان هذه القرية طيبيون أغنياء. كلهم يأكلون القمح.

مرحباً يا أخي.

وجاء قوزاقي فردّ على تحيّة الجد: - مرحباً بك أنت.

وقف ينظر إلى المتسولين نظرةً ثاقبةً، وحكّ أنفه صامتاً. ونظر لانكا إليه مستغرباً، أما الأب فظل ينتظر كلام الرجل الصامت، وأخيراً مطّ لسانه قليلاً وحاول أن يلامس به أطراف أنفه، ولما نجحت هذه العملية الأولى أدخل شاربيه في فمه ثم أطلقهما، وفصم عرى الصمت الذي كاد يكون مقلقاً ثم صرخ في قوّة:

- هيا معي إلى المركز!

وسأله الجد وهو ينتفض:

- ولماذا؟

وسرت في قلب لانكا رعشة.

- أمرني الرئيس بذلك فاتبعاني:

وأدار ظهره ومشى ثم التفت فلم يجد وراءه المتسولين فصرخ:

- ماذا تنتظران؟

ووقف المتسولان في سرعة ومشيا وراءه. ونظر الصبي إلى الشيخ فرأى أسنانه تصطك، ورأسه يهتز ويده تنبش في صدره، وعينيه تدوران خائفتين، وعرف أن له أمراً مثل أمره في مدينة تامان وتذكر الطفل مغامرة تامان فاختلج:

سرق الجد في ذلك البلد ثياباً منشورةً في ساحة دار ورآه أصحابها وهو يسرق فسخروا به وأهانوه وضربوه وطردوه في الليل. وهكذا أضطر إلى قضاء الليل على الشاطئ فوق صخرة، والبحر يزأر زئيراً مرعباً والرمل يئنّ والشيخ يسهر الليل كلّه يستغفر الله ويقول أنه لص.

- لانكا.

وارتجف لانكا كأنه ضُرِبَ بسوط على ظهره، ونظر إلى جده، فإذا وجه الجد الضامر يزداد ضموراً وتقلصاً. ومشى القوزاقي أمامهما على قيد خمس خطوات يدخن غليونه ويحرك عصاه.

وغمتم الجَدّ غمتمةً لا تكاد تُسْمعُ!

- خذ.. ألقها في السياج، وانظر أين تلقيها.

واقترب من حفيده وسلّمه صرةً مستديرةً، وابتعد لانكا وهو يرعش رعشة الخوف والبرد، وقرب من السياج وهو يلحظ القوزاقي، وألقى الصرة، وبدا عليه القلق حتى بعد إلقائها، لقد استطاع وهو يلقي بالصرة أن يلاحظ أنها انفتحت وأن عقداً سقط منها.

وأثار هذا العقد ذكرى الفتاة ذات الدموع التي لا تجفّ، ثم ظهرت له صورتها فمحت صورة القوزاقي، ومحت صورة الجد، ومحت كل ما يحيط به. ودوت في أذني لانكا زفرات هذه الطفلة وسمع نحيبها وخُيِّلَ إليه أنه يرى دموعاً رائقةً صافيةً تسيل على قدميه، وأمحت صورة الوجود في عينيه وملأ قلبه برد جليدي قاتل.

ومشى وراء جده إلى المركز خائر القوى، وسمع حواليه ضجةً لم يستطع ولم يرغب في فهمها، ورأى من خلال غيمة تغشى عينيه أن هنالك من يفرغ على منضدة كل ما في جراب الشيخ، وأن كسرات من الخبز تواثبت وسقطت في صمتٍ ولين، وأن هنالك رؤوساً كثيرةً ذات قبعات عالية تنحني على المنضدة، تعبس وتكلح ثم تنتصب في الضباب مهددةً متوعّدةً، وفجأةً جعل الشيخ يدور في يدي شيطانين ماردين كما يدور

الخذروف وهو يحتجّ بصوت مختنق في الجملة الأولى، حادة في الجملة الثانية:

- حرام يا أرثوذكس حرام. أشهد الله أني بريء.

وتهالك لانكا على الأرض وهو ينتحب وجاء دوره فرفعوه وأجلسوه على مقعد ونقّبوا في أسماله، وفجأةً انتهى كل شيء: ماتت الزفرت التي تخنق لانكا في حلقه، وانقطع نحيب الشيخ، وخرست الأصوات المزمجرة كأنما حدثت أعجوبة وصرخ صارخ منهم:

- كذبت دانيلوفا. تلك المرأة اللعينة!

وقال آخرون:

- لعلهما أخفياه في مكان آخر.

وعادت الأصوات إلى اصطخابها.

وشعر لانكا أن كل هذه الأصوات ضربات تقع على أمّ رأسه فيترنح ويغمى عليه وخُيِّل إليه فجأةً أنه سقط في هوة سوداء تفغر فاهاً فلا يرى حدّاً لها وعندما فتح عينيه شعر أن رأسه ملقى على ركبة جده الذي يميل عليه وفي وجهه تجعّدات لم يرَ مثلها من قبل أسى وعمقاً، ومن عينيه الخائفتين تنحدر دموع كبيرة تسقط على جبين الطفل وتتدحرج على خدّيه وتنحدر إلى عنقه. وقال له جده:

- أأنت خير حالاً؟! قم بنا يا صغيري نرحل، لقد تركنا الأشرار.

ورفع لانكا رأسه ثم جلس وخُيِّلَ إليه أن رأسه ثقيل كأنه حُشِيَ بشيءٍ وأنه سوف يتدحرج على كتفيه فأمسكه بيديه ثم جعل يترنح ويئنّ.

- صداعك شديد يا ولـدي. لقـد عـذّبنا هـؤلاء الوحـوش كثيراً. خنجر ضاع. بنت صغيرة أضاعت عقـدها.. إذن فـنحن المخطئـون. نحـن شحاذون، إذن فنحن سارقون. آه يا رباه ماذا ارتكبنا مـن جريمـة فتعاقبنـا عليها؟

وخرقت صرخات الجد أذني لانكـا فأشعلت في نفـسه لهيبـاً محرقـاً جعله يبتعد قليلاً عن العجوز ثم يحدق فيه رأى على وجـه هـذا العجـوز في موضع التجعدات أفاعي صغيرة من الكذب تتلـوى، ونظـر حواليـه وهـو يرتجف.

كانا في مخرج القرية تحت ظل نخلة، والليل قد أتم لباسه والقمـر أشرق ونشر على السهل العـريض أشـعته الـصفراء الفـضيّة، يحـاول أن يجعل هذا السهـل أكثر انكماشاً وانقباضاً مـن النهـار ولكـن أكثـر كآبـة وتجهّماً. وعلى الأفق هناك حيث تختلط الأرض بالـسماء تتقـدّم سـحب قاتمة إلى القمر تحاول طيّه وراءها، وتلقي على الفلاة ظلالها الـسود، ثـم لا تلبث أن تنقشع. وفي القرية أصوات تنبعث وأنوار تنتشر كأنها تغمـر نجوم السماء وقال الجد:

- هيا يا عزيزي يجب أن نذهب.

وقال لانكا:

- دعنا نستريح قليلاً.

لقد أحب البادية، وسرّه أن يطلـق لنظراتـه العنـان فتـضيع في تخـوم الأفق هناك حيث تستلقي السماء على صدر الأرض.

وخُيِّل إليه أنه يرى مدناً عظيمةً عامرةً، ملأى بالأعاجيـب يـسكنها

ناس كرام طيّبون، إذا لقيتهم لم تحتج إلى طلب الخبز، فهم اللـذين يوزعونـه توزيعاً من تلقاء أنفسهم على كل راغب فيه فإذا تمخّض السهب العريض عن قرية مثل القرى التي اجتازها من قبل بيوتها مثل بيوتها وسكانها مثل سكانها، شعر لانكا بحزن عميق يلقي كلاكله على نفسه، وبإهانة كبرى تعبث بجمال أحلامه.

ولكنه لا يلبث إذا طلع عليه اليوم الجديد، وعرض عليه السهب اللا نهائي سعته أن ينبعث حلماً حياً، أن يرى هنالك بعيداً وبعيداً جداً مدناً جديدةً عامرةً يسكنها ناس كرام طيبون، هي خير مّما مرّ به من مدن وهم خير ممّن لقيهم من ناس.

وأمعن النظر في أقصى الأفق حيث تتصاعد قبائل الغيوم كما يتصاعد دخان ألوف من المدافىء في تلك المدينة المثاليّة التي يحلم بلقائها ذات يوم.

وقطعت سعلة الجد حلم لانكا فنظر إليه في إمعان الشيخ يتنفس في صعوبة. وقد غسلت الدموع خدّيه، وأضاء القمر مرتفعات وجهه، وتساقطت الظلال الغريبة على أسماله وحاجبيه ولحيته فوهبت لوجهه الذي تختلج شفتاه وتتفتّح عيناه تعبيراً من الخوف ومن الحزن. ولم يستطع لانكا، وقد رآه أن يمنع نفسه من الابتعاد عنه مرة أخرى.

وقال الجد وهو يبحث في صدره عن شيء ويبتسم ابتسامة بليدة:

- إذن فلنبق قليلاً.

وأدار لانكا رأسه وحوّل نظراته إلى الأفق البعيد.

وصرخ الأب فجأةً صرخةَ المنتصر.

- لانكا: يا صغيري لانكا.. انظر.. انظر.

ومزّقه السعال ولكنه لم يمنعه من أن يعرض على عيني حفيده شيئاً طويلاً لامعاً.

- فضة.. أنه من فضة.. ثمنه خمسون روبلاً على الأقل.

وهزت يديه وشفتيه وغضنت وجهه هزّة شرهة مزعجة. ودفع لانكا يدي جده وهو يرتجف ويقول:

- أخفه حالاً يا جدي.. خبّئه.

- وماذا حلّ بك أيّها الأبله؟! هل أنت خائف يا ولدي العزيز؟ نظرت إلى النافذة فأذا به يتدلى فأخذته وواريته في صدري ثم علّقته فوق عليقة.. وغادرنا القرية فأوهمت الناس أن قبعتي سقطت وانحنيت فتناولتها.

يا لهم من أغبياء.. والعقد.. العقد أيضاً أخذته وأليك هو.

وأخرج العقد من بين أسماله وهزّه ليريه حفيده، ورأى الطفل سداً يقوم أمام عينيه ويمثل هذا المشهد.

الجد والحفيد يمشيان وقد حثا خطاهما في شوارع القرية.. يحاولان ألا يراهما أحد فيها. الخوف يضمهما، ولانكا يشعر أن لكل من على الأرض حقاً في ضربه وضرب جده، وشتمهما معاً والبصاق في وجههما، ولفت البيوت والأشجار والجدران المرتجفة أمام الريح غيمةً خفيةً. ومزّقت الهواء أصوات مختلفة تلك جلجلة لا يمكن أن تنتهي.. إنه لا يرى للقرية مخرجاً، ولا للحقول سبيلاً إنه مطوق بأطواق من البيوت المتنوّعة وتقترب أحياناً منهما لتسحقهما سحقاً وتتقهقر أحياناً عنهما وهي تكشّر وتتوعد، وكأن

نوافذها ثقوب سود تفغر فاها لابتلاعهما، ودوىٰ من إحدىٰ النوافذ صوت يصرخ:

اللصوص.. اللصوص.. أيّها اللص الصغير.

ونظر لانكا خائفاً إلىٰ هذه النافذة.. ورأىٰ تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تبكي في النهار. والتي سرّه أن يدافع عنها ويحميها.. رآها فعرفته وفهمت مقصده فمدّت له لسانها توائمه، ورشقته بنظرة نافذة من عينيها الزرقاوين وخزت جلده وخز الإبر.

وتجد هذا المنظر في عيني الطفل ثم اختفىٰ، فنظر إلىٰ جده نظرةً منكرةً، كأن الشيخ ما يزال يتحدث ويخطب ويثرثر، لا يمنع من ثرثرته غير السعال وكان يفرك يديه ويبتسم ويمسح القطرات الكبار من العرق الجاري في أخاديد وجهه، وغطت وجه القمر غيمة كثيفة ولم يرَ لانكا وجه جده، ولكن منظر الطفلة الباكية عاد إليه وقارن بين الصورتين: العجوز الضعيف الشره ذو الأسمال، والطفلة التي سرقها، وهي تبكي بكاءً مرّاً، الطفلة الصحيحة الصغيرة اللطيفة.

وبدا له العجوز في هذه المقايسة مخلوقاً خالياً من كل نفع خبيثاً أسود يكاد يكون مثل خبث (كوشتشي) الذي حدثوه عنه في الأساطير. أهذا ممكن؟ أمن الممكن أن يسيء هذا الجد إليه؟

والجد ما زال يتحدث وكأنه لا يعرف للتعب معنىً:

– مائة روبل.. لو جمعتها لمتّ في هدوء...

وثار لانكا ثورةً جامحةً وصرخ:

- اسكت... لو مت... لو مت... طالما رددت هذا القول ومع ذلك فأنت لا تموت بل إنك تعيش وتسرق.

وانتصب واقفاً: - إنك لص عجوز.

وهز لانكا قبضته الصغيرة تحت أنف الجد ناقماً ثم سقط على الأرض وهو يقول:

- سرقت طفلة.. فهل سرقتها حلال؟! عجوز ويسرق!! لن يغفر لك ربّك أبداً.

وفجأةً اهتزّت الأرض تحت بارقة تخطف البصر زرقاء دفعت تخموم الأفق ومزّقت الظلمات ثم توارت.

ودوى الرعد وهدر وهزّ السماء فركضت غيومها هاربة هرباً جنونيّاً وأغرقت القمر ثم عادت الظلمة، ولمع البرق من بعيد وانقضت ثانية ثم دوى الرعد وساد الأرض بعده صمت يظهر أنه يسكون أبدياً.

ورسم لانكا شارة الصليب. وبقي الجد ساكناً أخرس كأنه قطعة من هذه الشجرة التي يسند ظهره إليها. وخاف لانكا من قصف الرعد فقال لجده هامساً:

- لنعد إلى القرية يا جدي...

واهتزت السماء ثم اشتعلت بلون أزرق وقصف الرعد قصفةً هائلةً كأن ألوفاً من القضبان الحديديّة سقطت على الأرض فاصطدمت وتكسّرت.

وصرخ لانكا: جداه.

وغطّت جلجلة الرعد صوته فرنّ كأنه جرس مصدوع.

وقال الجد وهو لا يتحرك:

- ماذا بك يا ولدي؟ هل أنت خائف؟

كان صوته أجش فيه كآبة وسخرية ويأس، وأحس لانكا أن شخصاً غريباً عنه يتحدث إليه.

وهطل المطر في قطرات كبار وكأن في صوته إنذاراً غريباً مهموساً، وازداد هناك الصوت واطرد فكأنك تحكّ الأرض اليابسة بفرشاة ساردة بعيدة، أما هنا فكانت قطرات المطر تسقط على الأرض في صوت ميت ليس له صدى.

وصرخ الجد في صوت يخنقه الغضب:

- لن أعود إلى القرية.. وليغرقني المطر غرقاً ولتسحقني الصاعقة سحقاً، لستُ إلا كلباً عجوزاً سارقاً لا لن أذهب، عد إليها أنت وحدك.. القرية هناك فاذهب إليها، إنّني أمنعك من البقاء هنا اذهب.. اذهب.. اذهب..

وتمتم لانكا وهو يقترب من جده:

- جداه عفوك عني.

- لا.. لن أذهب. ولا أريد أن أعفو عنك.. سبع سنوات قضيتها أرعاك وأعني بك. هل لك عندي شيء.. أنا احتضر وأنت تقول لص، سارق، وفي سبيل من أسرق؟ في سبيلك كل ما فعلت وأفعل. لك ومن أجلك.

أرأيت؟ خذ خذ خذ وفرت واشتغلت واقتصدت وسرقت.. كل ذلك من أجلك والله على ما أقول شهيد، إنه يعرف أني سرقت وأنه

سيعاقبني جزاء لسرقاتي، هو لن يعفو عن كلب عجوز مثلي يرتكب جريمة السرقة. وها هو ذا يسرع إليّ بعذابه.. ويعاقبني. يا رباه: لقد بطشت بي بطش عزيز مقتدر. وقتلتني بيد هذا الطفل، وكنت بذلك جديراً ولذلك مستحقاً. يا مولاي ما أعدلك تباركت وتعاليت. اللهم ارحمني يوم الحساب.. آه.. آه..

وتحوّل صوت الجد إلى زمجرة حادة أخافت لانكا وأرعبته.

ودوى الرعد يهزّ الأرض والسماء واتصلت أصواته وطالت وكأن في قصفه منه خبراً هاماً ينقله إلى الأرض. وكان الصوت يأخذ بناصية الصوت فلا هوادة ولا ريث، وتخلّلت البروق الغيوم، وارتجف السهل حيناً، وغطاه البرق الأزرق حيناً وغمرته الظلمة حيناً، واحترق الأفق بنار موقدة لا تنطفئ.. وكأن كل هذه العناصر الطبيعية الغاضبة تدفع حدود المكان دفعاً إلى وراء وتعود القهقرى.

وانهمر المطر انهماراً وأصبح لونه في ضوء البرق فولاذياً، وألقى من دون أنوار القرية المضيافة حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً.

وخاف لانكا وقلق وندم على ما فعل بجده، وعلى الرغم من أن قطرات المطر كانت تسقط من رأسه على عينه فقد ظلّ يفتحها خوفاً ورعباً.. وظل يصغي إلى جده في هذه الفوضى الغامرة من الأنغام الهائلة.

وفهم الطفل أن جده ساكن في مكانه لا يتحرّك، ولكنه خُيِّلَ أنه يبتعد عنه ويتوارى في مكان ما تاركاً الشيخ وحده واقترب من دون وعي من جده ولمس مرفقه بيده.. وعند ذلك ارتجف وانتظر حدوث أمر مخيف.

مزّق البرق الغيوم، وأنار هذين المخلوقين المتلازمين الضئيلين، وقد تقلّصت أعضاؤهما تحت سيول الماء المتدفّقة من ثنايا الأشجار.

ورفع الجد يده إلى السماء ودعا دعاءً غير مفهوم، وكان التعب قد هدّه وامتصه ونظر لانكا إليه فصرخ صرخةً رهيبةً، هذا الوجه وجه ميت أناره البرق، هاتان لعينان عينا مجنون.

وصرخ لانكا: – هيا بنا يا جداه.. ثم غمر رأسه بين ركبتي جده.

وانحنى الجد عليه وضمّه إلى صدره بيديه العظيمتين وفجأةً زأر زئيراً مؤلماً كأنه ذئب وقع في فخ. وخُيِّلَ إلى لانكا أنه جنَّ خوفاً وفرقاً، فانتزع نفسه من يدي جده انتزاعاً واندفع أمامه كأنه سهم. وأعمته البروق فسقط ثم نهض وغاص في أعماق الظلمات التي كانت البروق تبددها حيناً بعد حين، فتعود أشدّ ضيقاً وأكثر ضغطاً على هذا الطفل المجنون.

واستمر الرعد يدوي، واستمر البرق يلمع واستمر المطر ينهمر رتيباً كثيباً.. وكأن السهب لم يسمع أبداً غير جلبة المطر وقصف الصواعق وجلجلة الرعد..

.. وأسرع أطفال القرية إلى قريتهم في اليوم الثاني، ينذرونها انذاراً.. رأوا الشحاذ العجوز متمدداً في ظل نخلة لابد أنه ذُبِحَ ذبحاً، فإن إلى جانبه خنجراً.

وحقّق القوزاق في الأمر فرأوا أن تفصيلاته ليست صحيحة تماماً.

وكان العجوز لا يزال يتنفس وقد حاول عندما رآهم أن يقف على قدميه فخانته قواه، وانعقد لسانه، فبحث بعينيه عن شخص أو عن شيء ما فيمن حوله.. فلم يكتشف أحداً ولم يجبه أحداً.

ومات عند المساء فحفروا له قبراً في مكانه تحت النخلة، فقد قرروا أنه، وهو السارق الذي مات قبل أن تغفر له الكنيسة ولا يجوز أن يستريح في مقبرة المؤمنين الصالحين.

ووجدا لانكا بعد يومين أو بعد ثلاثة أيام في ضواحي القرية، وقد دلّت عليه طائفة من الغربان كانت تحوم حول مجرى السيل وتنعق.. وتقصوا السبب فوجدوا الطفل متمدداً، منكباً على وجهه وقد غطاه الطين الذي جاء به السيل إلى الحفرة.

وقرروا بادئ ذي بدء أن يدفنوه في المقبرة باعتبار أنه طفل، ولكنهم ما لبثوا أن فكروا وقلبوا وجوه الرأي فدفنوه إلى جانب جده تحت ظل النخلة.

وأشاروا إلى مرقد الجد والحفيد بكومة من تراب فوقها صليب من حجر..

فهرس

هذا الكتاب...

قال إياس بن القائف:

«تقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا»

في هذه المجتمعات التي يسودها نظام التنازع الحيواني في سبيل البقاء، مهما كان نوع البقاء، لا نظام التضامن الإنساني في سبيل حسن البقاء، وفي هذه المجتمعات التي يعيش فيها الإنسان «شيئاً» لا قيمة له، لا «إنساناً» هو معيار القيم، في هذه المجتمعات التي ما تزال تسير يدفعها القدر الأعمى، ولا يهديها العقل البصير، في هذه المجتمعات يعيش الملايين من البؤساء، تقذف بهم الأرض في كل جانب فهم لا يطمئنون، وتلقى عليهم الحياة أثقالها فتطحنهم طحناً. في هذه المجتمعات يتحوّل هؤلاء الملايين إلى لصوص يسرقون ويظنّون أنّهم بهذه السرقة قادرون على حلّ مشكلة فقرهم وهي جزءٌ من مشكلات المجتمع، وهم لا يعلمون أنّهم يزيدونها بها تعقّداً، وإلى متشردين يسعَون في طلب الرزق في كلّ مكان فلا يجدونه في مكان، يطلبونه حفاة عراة ويظلّ يفرّ منهم، فتهترئُ حياتهم في الشوارع والأزقّة فلذة بعد فلذة حتى يسلمهم طول الطواف في صحارى العمر إلى طول الرقود في زوايا القبر، وإلى شحّاذين يملؤون آذان الناس في طلب الرحمة ولو كان في الناس رحمة لجادوا عليهم بها دون سؤال، ويتسكّعون على الأبواب يطلبون من مال الله والمال في خزائن الأغنياء، فيضربهم الرجال وتنتهرهم المرأة ويشتمهم الطفل، ويستمرون في التسول يجمعون كِسَرَ الخبز اليابس، وفضلات الطعام الوخم، ويجعلونها غذاء لأطفالهم الذين يسيرون بهم إلى جانبهم أكواماً من الأقذار وتلالاً من الأسمال، أو يحملونهم على ظهورهم مرضى يفتك بهم السلُّ فيقيئون رئاتهم وهم يسعلون.



